بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الـهِجْرَةُ
فِي طَلَبِ الـعِلْمِ

مُدارسةٌ إيمانِيّةٌ إصلاحية

في آيةٍ مِن سورةِ «التَّوبةِ»

بقلم

محمود توفيق محمد سعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ • الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

اللَّهُمَّ صَلِّ وسلّمْ وبارك علَى سيّدنا مُحَمَّدٍ وَعلى آلِه وأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ وأصحابه وورثته من أهلِ العلم ومن تبعه بإحسانٍ إلى يَومِ الدّين كَمَا صَلَّيْتَ وسلمت وباركتَ عَلَى سيدنا إبراهيم وعلَى آل سيّدنا إِبْرَاهِيمَ عدَدَ خلقِك ورِضَاءَ نَفسِك وزِنةَ عرشِك ، ومِدادَ كلِماتِك كما تحبّ ربّنا وترضَى إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

أمّا بعد، فلعلّه من أعظمِ النّعمِ الّتي أنعم الله - سُبْحانه وَبِحمْدِهِ - على بني آدم - عَلَيْهِ السّلامُ – نعمة « العلم» فامتن - سُبْحانه وَبِحمْدِهِ – قائلًا: **«وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا»** (البقرة:٣١) فكان ذلك من معالم تكريمه بني آدم، ، تعليمه آدم - عَلَيْهِ السّلامُ – الأسماء كلّها ، وذلك يؤولُ إلى أنّه تعالى أقدرَ أبانا آدم عَلَيه الصّلاة والسّلام على أن يتفرّس الأشياءَ ، فيُبصِرَ حقائقها وسماتِها المائزة، فيضعُ إلهامًا لها أسماءً تنبئُ عن حقيقتِها، فاسْم كلّ شيْءٍ الأصلُ فيه أن يكونَ سِمةً عليه تُنبئُ عَن حقيقتِه، إذ الاسمُ مشتقٌ مِن "السِّمةِ" فهُو جَلّ وعزّ في ما أذهبُ إليْه لَم يُلقّن أبانا آدمَ - عَلَيْهِ الصّلاةُ السّلامُ – أسماءَ الأشياء بل أودعَ فيه، ثُمَّ فِي ذريّتِه مهارةَ التَّفرُّسِ ، وَوضعِ كَلِمٍ تدلُّ على حقيقةِ الأشياءِ. وهذا ما لم يكنْ للملائكةِ، فأسجدَهم له لما أودعَ فيه مِن هذه النّعمةِ، فالعلمُ الّذي أودعَه الله - سُبْحانه وَبِحمْدِهِ – في أبينا - عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ – وكان لنا منه نصيبٌ هُو الّذي جعل الملائكةَ تسجُدُ له ، ولذا كان حظُّ طالبِ العلمِ وهُو ساعٍ إلى طلبِه احتسابًا لا تفاخرًا وتكاثرًا مِن متاعِ الحياةِ الدُّنيا وزينتِها أن تحفَّه الملائكةُ ، وأن تضعَ لَه اجنحتَها رضا لسَعيِه .

روَى أبو داودَ في كتابِ« العِلمِ» مِن سُنَنِهِ بسنده عَنْ كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِى الدَّرْدَاءِ - رضِيَ الله عَنْهُ - فِى مَسْجِدِ «دِمَشْقَ»

فَجَاءَهُ رَجُلٌ ، فَقَالَ : يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ ، إِنِّى جِئْتُكَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ – صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم - لِحَدِيثٍ بَلَغَنِى أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم - مَا جِئْتُ لِحَاجَةٍ. قَالَ : فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ :

« مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ.

وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ .

وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِى جَوْفِ الْمَاءِ .

وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ .

وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا . وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ ».

ولعلّ وضعَ أجنحتِها لطالبِ العلمِ وهُو فِي مسيرِه طالبًا العلم النّفيع احتسابًا صورةً ممّا كان لأبينا آدم - عليه الصّلاة والسّلام – من السجود له أمرًا لهم من خالِقهم ، وهذا ما لا يكونُ لغيرِ طالبِ العلمِ النّفيعِ احتسابًا . ليس فِي الأرضِ أحدٌ يسعَى إلى شيْءٍ تضعُ الملائكةُ أجنحتها له رضًا بما يسعَى إلَّا طالب العلم احتسابًا ، ممّا يهدِيك إلى أنَّ هذا الأمرَ هو أشرفُ ما يجبُ أن يكونَ منك ، فعلَى تحقيقِه تُبنى أشياءٌ كثيرة ، بلْ يُبنَى عليه حُسنُ القِيامِ بالرِّسالةِ الاسْتِخْلافِيَّةِ لِبنِي آدم - عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ - : رسالةَ إعمارِ الحياةِ كونًا وإنسًانًا بمرادِ الله تعالى الشّرعيّ ، فيكون خليفةَ الله تعالى في إنفاذِ مرادِه الشَّرعِيّ ، وفِي نصرةِ الحقِّ بالحقّ ، وفي صُنع الخيرِ ونشرِهِ فِي النَّاسِ كلّ النَّاسِ احتسابًا.

ولَو لَم يكن للمرءِ مِن طلب العلمِ النَّفيع احتسابًا سِوَى هذا في دنياه لكانَ هذا وحده كافيًا لِأنْ يبعثَه إلَى أن يجعلَه الطَّلِبَةَ الّتِي يَرخُصُ فيها كلُّ ثمينٍ مِن متاعِ الحياةِ الدّنيَا ، ويهونُ فيها كلُّ عناءٍ ورَهقٍ ، ولكان كفيلًا بأن يُحاجِزَ الأبصارَ والبصائرَ عَن أنْ تمتدَّ إلى ما متّع الله - تعالَى - بِه بعضَ

خلقِه مِن زهرةِ الحياةِ الدُّنيا ، ولهانَت عليه كلّ مَتيعةِ نفسٍ ، ولَم يرَ أحدًا قد أُعطِيَ خيرًا ممّا أعطِيَ إلّا مَن كان له نفيسًا في ذلك.

فإذا ما رأيتَ مُشتغلًا بالعلم تمتدّ عينه إلى زهرةٍ من الحياةِ الدّنيا في أيدِي الآخرين ، فاعلمنّ علمَ يقين أنّه ما ذاق مِن لذةِ طلبِ العلمِ وخِدمتِه شيئًا ، وما هو بطالبِه ، وإنّما هُو مشتغلٌ به طلبًا بِه ما لا يطلبُ بِه، فمَنْ طلبَ الدُّنيا بالعلمِ كان أحمقَ مِمَّن يَطلُبها بمزمارٍ :

مَن طلبَ الدُّنيا بِمزمارٍ إنّما طلبَ حقيرًا بحقيرٍ ، فكان المطلوبُ «الدّنيا» والمطلوبُ بِه «المزمار» سواءً .

ومَن طلب الدُّنيا بالعِلم فقد طلَب حقيرًا بعظيم ، ولا يفعلها إلَّا مأفونٌ.

لَو انّا اسْتطعْنا أن نطعِمَ أفئدتَنا ما فِي هذا الحديثِ من المعاني الإحسانِيّة ، ثم نطعمُ ابناءَنا :أبناءَ أصلابنا وأبناءَ أفئدتِنا وألسنتِنا لكان هذه وحدَه قائمًا بحقِّ السَّعي إلى إعمار الحياةِ كونِها وإنسانِها بالحقِّ المبين، والخير العميم .

•••••

هذِه صفحاتٌ تسعَى إلى أن تثوّر فيك رغبةً صادقةً فِي أن ترَى بصيرتُك وأنت تسعَى إلى طلب العلم الملائكةَ ، وهي تبسُط أجنحتها لك رضًا بما تصنَع ، نعم يُمكن لفؤادِك أن يستشعرَ هذا ، وإن امتلأ الكونُ من حولك ضجيجًا ، المهمّ أن تكونَ أنت مشغولًا بربّك - سُبْحانه وَبِحمْدِهِ: مشغولًا بِما يَرضاه مِنك ولَك ، فإنْ فعلتَ ، ولن تفعل إلّا إذا ما كنت عليما بما يرضَاه ربّك - سُبْحانَه وَتعَالى- فلعلّك يومًا ترَى بصيرتُك الملائكةَ مِن حولِك ، وحينئذٍ لَن ترضَى بغيرِ أن تكونَ طالبَ علمٍ نفيعٍ وخامده إيمانًا واحتسابًا .

هذه صفحاتٌ تسْعى إلى أن تحقّق شيئًا من « فقه معاني الهدى في الحثّ على الهِجرة في طلب العلم في آيةٍ مِن سورةِ «التَّوبةِ» متخذةً من هذه المدارسة ما يمكّن الإيمانَ الصّحيح الصّريحِ في الأفئدة، وما يحقّق

إصلاحًا لما يجرِي في الحياة من تجاوز في طلب العلم ، ولا سيّما العلم بكتابِ الله - سُبْحانَه وَتعَالى- والعلم بسنة رسوله صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم - فقد بات عند غيرِ قَليلٍ من طلاب العلم بهما اتخاذ ذلك أداةً لطلبِ زُخرف الحياة الدّنيا وَلَعِلَعِها ،وباتَ طالبُه لا يكاد يُعرفُ بسمتِه ما يميزُه عَن مَن يطلُب علمًا يشغلُ طالبَه عن ربه – تعالى- ويقيمُه عبدًا لشهواتِه ،فلا تُبصِرُ نفسهُ ما يحاجِزها عن تحقيقِ شهواتِها .

ولو أنّك قرأتَ ما رقن الأعيانُ من أهل العلم فِي شأنِ أخلاق أهلِ العلمِ وطَالبيه ، وسعَيت إلى أن تراها قائِمةً بيْن عينيْك في كثيرٍ مِمّن حولِك ممّن يطلبون العلمِ بكتابِ الله – تعالى- وبسنَّة رسُوله - صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم - لما رأيت ذلك قائمًا في كَثيرٍ منهم.

لو كنتُ... لأوجبْتُ أن يُمنَح كلُّ طالبِ مِن طلابِ العلمِ بكتابِ الله - سُبْحانَه وَتعَالى- وبسنّةِ رسولِه - صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم - فِي مفتتح التحاقِه بالمرحلة الثّانويّة ، والجامعيّة بعضًا من هذه الكُتُب الّتي تسوقُ إلينا جمعًا مَن أخلاقِ أهلِ العلم وطلبه . ولأوجبْتُ عليهم التَّخلق بما فيها. وجعلتُ ما فيها ميثاقَ شرفٍ يجبُ الالتزام به ، ومن لم يلاتزم علّم وأدب في رفقٍ وحزم، فإن أبى عوقبُ بما يُصلِحُه لنفسِه ولقومِه ثُمَّ لدينِهِ .

إن تهيئة الأفئدة لتلقِي العلم احتسابًا لَهِي طليعةُ المسؤوليّة المُلقاة على عاتقِ كلِّ المؤسّسات التّعلميّة ، والتّقصيرُ في ذلك أو الانشغال عنه بعرضٍ من الدنيا يؤدّي إلى أن تستحيلَ الجهودُ المَبذولةُ فِي تعليمِ أولئك الغافلةِ قلوبُهم عَن حقيقةِ ما يسعون إليْه كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا. وما يفضِي إلى هذا فريضةُ عَيْنِ الاجتهادُ فِي العِصمةِ مِنْه .

•••••

اتخذتُ منهج النّظرِ البلاغِيّ العربيّ فِي تدبّر الآية الحاثة على النّفرة إلى طلب العلم احتسابًا في سورة «التّوبة» وهو المنهجُ الذي أراه أصحّ مناهج القراءة لبيان الوحي قرآنا وسنة ، وأنفعها وأمتعها، ذلك أنَّه منهجٌ

منسولٌ من المَقروء نفسِه : "بيان الوحي" وليس منهجًا وافدًا من خارجه. وما كان كذلك كان هو الأنيسَ المقتدرَ على أن يحملَك إلى أغوارِ المقروءِ ، وكلّ منهجٍ غير منهج النَّظر البلاغي العربيّ غير قادرٍ على أن يُحقق لك مِن قراءَتِك التَّدبّريّة الإحسانيّة لبيانِ الوحيِ قُرآنًا وسُنَّة ما أنتَ فِي حاجةٍ إلَيْه .

مَنهجُ النَّظرِ البلاغِيّ العربيّ في بيانِ الوَحي قُرآنًا وَسُنّةً هُو مِنهاجُ «التلقّي» عَن الله - سُبْحانه وَبِحمْدِهِ – وعَن رسُولِه - صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم – وهو منهج طليعته « الإدراك والتّعقل» ثُم «التّفقه» لما يُقرأ ، ثم يتصاعد بك ، ليبلُغ بك مقامَ «الفهم» عَن الله - سُبْحانه وَبِحمْدِهِ – وعَن رسُولِه - صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم – فيكونُ لك من هذا «الفهم» نعمةُ استطعامِ ما فهِمتَ ، فيتحقَّق لك مقامُ «المراقبة» الفؤادية : «فإنّه يَراك» ، ثُمَّ يتحقَّق لك مقامُ «المشاهدة» الفؤادِية: « كأنّك ترَاه » فإذا بِك تحومُ حول مقامِ « الصّديقية» ، فلعلَّك تقعُ فيه، وتلك الّتي ليس مِن فوقِها طَلِبَةٌ لِعاقلٍ .

والله تعالى هو المُستعانُ به على ما يرضيه. والمستجدى رضصوانه وسترهومحبتُه . وصَلّى اللهُ على سيّدنا محمّدٍ وَعلى آلِه وصحبِه وسلّم تسْليمًا كثيرًا. والحمدُ للهِ ربّ العالمين.

وكتبه

مَحمُود توفِيق مُحمّد سعد

الأستاذ في جامعة الأزهر

القاهرة : مدينة الشروق

توطئة

ممَّا أكرمَ الله - سُبْحانَه وَتعَالى- بعضَ خلقِه أن جعلَهم مِن آلِ بيتِ نبيّه صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم ، ومنْهم مَن جعلَه مِن صحبِه ، ومنهُم مَن جعلَهم مِن المُهاجرين معه من «أم القرَى» إلى «المدينة النّبويةِ» ، ونحنُ في زمانِنا هذا لم نحظَ بذلِك الشَّرفِ الأثيلِ ، بيْد أنَّه - سُبْحانَه وَتعَالى- جعلَ لنا سبيلًا لما هو مِن باب هذه النّعم الثّلاث : نعمةِ الانتساب إلى بيت النّبيّ - صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم - ونعمة صحبته - صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم - ونعمة الهجرة معه من دار الكفر إلى دارالإيمان.

نَعم بمقدورِ كلّ مسلمٍ صادقٍ أن يكونَ مِن بيتِ آلِ النّبيّ - صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم - وأن يكونَ من صحبِه ، وأن يكونَ مِن المهاجرين معه .

يمكنُك أن تكون مِن آلِ بيتِه صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم حَسَبًا لا نَسبًا ، وآل بيته حَسبًا هم أقربُ إليه مِن آلِ بيته نسبًا لا حَسَبًا.

آلُ بيتِه حسبًا هم أهلُ الكتابِ والسّنة المُستمسكونُ بهديه إيمانًا وعلْما وتخلقًا والدَّاعون إليه بلسان حالهم ولسان مقالهم احتسابًا.

أنت عربيًّا أو غيرَ عربيّ إن استمسكتَ بسنتِه - صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم قولا وفعلا وحالًا احتسابًا ودعوة إلى ذلك ، وكنت لها نصوحًا ،وعليْها قوّامًا رعايةً وحمايةً وتعليمًا ودعوة ، فأنتَ مِن آلِ بيت النّبي صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم حسبًا لا نسبًا.

روَى أبو داود في كتابِ «الفتن» من سُننه بسندِه عَنْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ - رضِيَ الله عَنْهُما - أنّ رسولَ الله - صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم قال : «... **وَإِنَّمَا أَوْلِيَائِىَ الْمُتَّقُونَ** ».

وأنت كذلك أنْ صحبتَ سنته صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم في جميع أمرك وأنزلتَ جميعَ أحوالِكَ على حكمِها لا ترعَى فيها لومة لائم، فأنك من إخوانه صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم

روى مسلم في كتاب« الطّهارة» من صَحيحِه بسندِه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضِيَ الله عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم - أَتَى الْمَقْبُرَةَ فَقَالَ:

« **السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاَحِقُونَ وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا** ». قَالُوا أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « **أَنْتُمْ أَصْحَابِى وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ** ». فَقَالُوا كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ « **أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلاً لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَىْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلاَ يَعْرِفُ خَيْلَهُ** ». قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: « **فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ أَلاَ لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِى كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ أَلاَ هَلُمَّ. فَيُقَالُ : إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ : سُحْقًا سُحْقًا** ».

وروَى الطبرانيّ في المعجم الأوسط بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **مَتَى أَلْقَى إِخْوَانِي؟**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْنَا إِخْوَانَكَ؟ قَالَ: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانِي الَّذِينَ آمَنُوا بِي، وَلَمْ يَرَوْنِي**»ورواه أبو يعلى في مسنده.

وأنت بملكك أن تكون من مهاجرين ، فالهجرة في زمن سيّدنا رَسول الله صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم كانت انتقالًا مِن دارِ كفرٍ إلى دار إيمانٍ ،وقد انتهت تلك المرحلة بفتح مكة.

روَى الإمامُ البخاريُّ في كتاب «الجهاد » بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضى الله عنهما - أَنَّ النَّبِىَّ – صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم -

قَالَ يَوْمَ الْفَتْحِ : « **لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا** » .

ورواه الإمامُ مسلم بسنده عن عائشة - رضِيَ الله عَنه – في كتاب «الإمارة»

ما يزال باب الهجرة في سبيلِ الله تعالى مفتوحًا إلى يوم القيامة، وأعلاه الهجرة طلبًا للعلمِ بكتاب الله تعالى وبسنة رسوله صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم ،وطلبا للعلم النّفيع للأمّة الّذي به يتحقّقُ غناؤها عن غيرها من الأمم ، وبه يتحقَّق لها عزُّها، وبه تكونُ لها اليدُ العليا الّتي تعطِي احتسًابًا ولا تأخذُ استجداءً ، وبه تكونُ لها اليدُ العليا الّتي تنصُر الحقّ بالحقّ أيًّا كان صَاحبُه ، ولو كان كافرًا ، وتصنعُ الخيرَ وتنشرُه في النّاس كلّ النّاسِ إيمانًا واحتسابًا.

الهجرةُ والجهادُ في طلب العلم هذان بابان مفتوحان إلى يومِ القيامة . وهذا من عظيمِ فضلِ الله - سُبْحانه وَبِحمْدِهِ – على هذه الأمّة.

أمَّا الجهادُ بالعلم ، فإنّك تسمعُ ما رواه أبو داود في كتاب «الجهاد» من سننِه بسندِه عَنْ أَنَسٍ بن مالك - رضِيَ الله عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ : « **جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ** ». ورواه النّسائيّ وأحمدُ والدّارميّ وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك (صحّحه الألبانيّ)

قوله: «وألسنتكم» يراد به العلم الّذي أداة تبيلغه «الألسنة» ونحن في زماننا سبيل استعباد الآخرين لنا إنما هو«العلم» به يملكون رقابنا لأنّا لا نملك منه ما يملكون.. وقد كنّا نملِكُ ولا يملكون، فخلف مِنّا خلف أضاعوا ما كان الأسلافُ قد صنعوا .

وسبيلُ الدّفاع عن دينِنا وعرضنا وأرضنا وكرامتنا إنّما هو العِلم : العلمُ ببيانِ الوحي كتابًا وسنّة، والعلمُ بلسانِنا العربيّ ، والعلمُ بكلّ ما ينفعُ الأمّة ويحقّق لها استغناءَها عن غيرها ، لتكونَ عزيزةً منيعةً.

وسيدُنا سفيان الثّوريّ - رضِيَ الله عَنْهُ – يقول :« **مَا مدّ رجلّ يدَه في قصعة رجلٍ إلّا ذلَّ له** » وهو بهذا يحاجزنا أن نسلك ذلَك المسلك فنمدّ أيدينا إلى قصعة من ليس بتقيّ بل إلى قصعة مَن هو لديننا الخصم الألدّ .

العاقل لا يمدُّ يده إلّا إلى قصعةِ مسلمٍ تقيّ ، فحذار أن تمدنَّ يدك إلى قصعة فاسقٍ وإن متّ جوعًا ؟

وإذا كان أهل الحكمة على ألأ يأكل طعامك إلّا تقي، كيما لا يكون طعامُك زادَه إلى الفسوق ، فالأولى ألّا نأكل نحنُ من طعام مَن لَم يك تقيًا، فإنّه لا محالة طعامٌ ملّوثٌ بفسد الأفئدة من قبلِ الأجساد.، وطعام الأفئدة "«العلم» أولَى بالحيطةِ مِن طعام الأجساد. فلا تطعمنّ فؤادَك مِن العلم إلَا علّما أنت آخذ مِن تقيّ خبيرٍ . ولذا كان الحرصُ على السّند القويّ في تحملِ العلمِ من الدين.

وهذا الأمرُ لا ينحصِرُ في شأن الأفراد بل هو قائمٌ في شأنِ الدُّول .

ما مدّت دولةٌ يدَها إلى قصعة دولةٍ أُخرَى إلّا ذلّت لها.

ومقدار ما تمدّ يدها في قصعتها بمقدار ما تستلب من كرامتها وحريتها ودينها وقرارها السياسيّ .

يستحيلُ أن تجدَ فردًا أوْ دولةً تمدّ يدَها إلى غيرها استجداءً أو اقتراضًا ، وهي تملِك قرارَها في أيِّ أمرٍ منْ أمورِ حياتِها ؟

العلمُ والإيمانُ هما معا الّلذان يعصمانِك فردًا ودولة من هذا الذلّ ، ممّا يجعلُ طلبَ العلمِ عديلَ طلبِ الإيمان ، ومن قصّر في تحقيق العلم النّافع له، ولأمّته كان كمثل المُقَصّر في تحقيقِ الإيمانِ الّذي يحمِيه مِن النّار يوم القيامةِ.

أنت إذْ ترتحلُ من بلدِك وقومِك قصرت المسافة أو تطاولت تطلبُ العلم بكتاب الله تعالى وبسنة رسُولِه صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم إيمانًا واحتسابًا إنّما أنت مجاهدٌ ومهاجرٌ في سبيلِ الله تعالى معًا ما كنت صفيَّ القصد فتيّ العزمِ متقِنا لصنعك.

ثلاثة بها يتحقّق لك شرفُ الجهادِ والهِجرةِ في سبيل الله تعالى: صفاءُ القصدِ ، واتباعُ الشّرع في سعيك وفتاءُ العزم ، أيًا كان نوعُ العلم النّفيع لك ولقومِك.

والارتحالُ في طلب العلم سنّة عن أسلافِنا من عهد سيدنا رسول الله صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم ، ولا تكاد تجد أُمّة عظم فيها شأنُ الهجرةِ والارتحالِ في طلبِ العلم ، ولو كان سطرًا واحدًا ، كمثل ما أنت واجدُه في هذه الأمّة أمة القرآن والسُّنة، فالتّاريخُ مسجّلٌ لنا ما كان من غير قليلٍ منهم يرتحِل شهرًا على دابّته فريدًا ليلقى عالمًا معه حديُث موثوقٌ رفعه إلى سَيّدنا رسولِ الله صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم ، فيأخذه ، ثمَّ يقفُل إلى أهلِه.

روى الْحُمَيْدِيُّ في مسندِه بسندِه حدثنا سُفْيَانُ قَالَ: حدثنا ابْنُ جُرَيْجٍ قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا سَعْدٍ الْأَعْمَى يُحَدِّثُ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ يَقُولُ: خَرَجَ أَبُو أَيُّوبَ إِلَى عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ، وَهُوَ بِمِصْرَ يَسْأَلُهُ عَنْ حَدِيثٍ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَهُ وَغَيْرَ عُقْبَةَ ، فَلَمَّا قَدِمَ أَتَى مَنْزِلَ مَسْلَمَةَ بْنِ مَخْلَدٍ الْأَنْصَارِيِّ ، وَهُوَ أَمِيرُ مِصْرَ ، فَأُخْبِرَ بِهِ ، فَعَجَّلَ ـ فَخَرَجَ إِلَيْهِ ، فَعَانَقَهُ، ثُمَّ قَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا أَبَا أَيُّوبَ؟ فَقَالَ: حَدِيثٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرِي وَغَيْرَ عُقْبَةَ ، فَابْعَثْ مَنْ يَدُلُّنِي عَلَى مَنْزِلِهِ قَالَ ، فَبَعَثَ مَعَهُ مَنْ يَدُلُّهُ عَلَى مَنْزِلِ عُقْبَةَ ، فَأُخْبِرَ عُقْبَةُ بِهِ ، فَعَجَّلَ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ ، فَعَانَقَهُ ، وَقَالَ : مَا جَاءَ بِكَ يَا أَبَا أَيُّوبَ؟ فَقَالَ : حَدِيثٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ سَمِعَهُ غَيْرِي وَغَيْرَكَ فِي سَتْرِ الْمُؤْمِنِ . قَالَ عُقْبَةُ : نَعَمْ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

«مَنْ سَتَرَ مُؤْمِنًا فِي الدُّنْيَا عَلَى خِزْيِهِ سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

فَقَالَ لَهُ أَبُو أَيُّوبَ: صَدَقْتَ، ثُمَّ انْصَرَفَ أَبُو أَيُّوبَ إِلَى رَاحِلَتِهِ ، فَرَكِبَهَا رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَمَا أَدْرَكَتْهُ جَائِزَةُ مَسْلَمَةَ بْنِ مَخْلَدٍ إِلَّا بَعَرِيشِ مِصْرَ . ([1]) وجائزتُه إنّما هِي ضِيافتُه.

وفي الذّكر الحكيم آية في سورة «التوبة» تحضُّ على النّفرة في طلبِ العلم النّفيع للنّافرِ وقومِه ، وهي جديرةٌ بأن نتلبث مستبصرين متدبّرين ما فيها من معاني الهُدى لعلنا نجدُ فيها ما يشحذ عزائمَنا، ويقوّى قدرتَنا على الصَّبرِ الجميلِ على طلبِ العلم ، وعلى الارتحال والهِجرة في تحصيلِه. لا يثحاجزنا عن ذلك غربةُ أجسادٍ ، ولا اغترابُ نفوسٍ .

يقُول الله تعالى: « **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**»(التوبة: ١٢٢)

---

[1]) ذلك الحديثُ الشريف الذي ارتحل سيدنا ابو أيوب الأنصاري وهو من هو شهرًا إلى مصر على راحلته فريدًا ليحفظه لنا،وينشره فينا، لو أنا أقامنا هذا الحديث سلوكًا في حياتنا في علاقتنا ببعضنا لكان لنا إن شاء الله تعالى شأن عظيم في مسيرنا ومصرينا.
بات كثير منا حتى من طلاب العلم والمشتغلين به من يستعذبُ رواية عورات العباد وخزيهم، يتفكه بذلك ، وكأنه أيقن أنه المعصوم الذي لا تكون له عورة .

فقه

موقع السورة

التي وردت فيها الآية من السّياق القرآنيّ

السّياقُ التَّرتيليّ للقرآنِ مفتتحٌ بـ«أمّ الكتاب» ومختتمٌ بالمعوذتين ،وما بيْن المفتتحِ والمختتمِ سورٌ نُسقت وفق ما جاء بِه الوحيُ ، فلكلّ سورةٍ منه موقعٌ لا سبيلَ لأحدٍ من العالمين أن يقدّم أو يؤخّر، وتبقى حركةُ المعنَى القرآنيّ المتصاعدةُ سواءً.

وسيدُنا رسُولُ الله - صَلّى اللهُ عَليْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّمَ – قد أنبأنا أنَّ السِّياقَ القرآنيّ أربعُ مراحلَ «أحزاب» في كلّ حزبٌ جمعٌ من السور.

روَى الإمامُ أحمدُ في مسندِه بسَندِه عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ - رضِيَ الله عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ – صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم - قَالَ : « **أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ** ».

دلَّك هذا على أنَّ لكلّ حزبٍ خصوصيةً فِي ما يحملُه مِن معانِي الهُدى ، ويتبع هذا اتسامُه بخواص تركيبية وتصويريّة تتناسبُ مع محموله من معاني الهدَى في ما يعادله من الكتب المنزلة من قبلِ القرآن .

وهذا ما يكلّفنا العمل على استبصارِ خواصّ كلّ حزبٍ من الأحزاب الثّلاثة الأول«السّبع:التّوراة»،«المئين: الزّبور»« المثانِي: الإنجيل»

وهذا عمل شاقٌ جدًا ، وهو كالمسكوتِ عنه في الدّرسِ البلاغيّ للقرآن، بلْ فِي علومِ القرآنِ.

ولعلّ فقدان الكتب الثلاثة: «التوراة والزّبور والأنجيل» كما نزلت يمثلُ عائقًا عن حسن البصر بما بيْن سور الأحزاب الثّلاثة الأول ، وما يعادلها من الكتبِ الثّلاثة، ولكن يمكننا من خلالِ فقه ما حملته سور كل حزبٍ من

الماعني أن نقف على غير قليلٍ من خصائصِ كل كتاب من الثلاثة الكتب مضمونا .

وكان من برهان الدين البقاعي في تفسيره:«نظم الدرر » محاولة لمناظرة بعض ما ورد من آيات الله تعالى بما هو في هذه الكتب الثلاثة المُحرفة .وقد لقي صنيعه هذا مزيدًا من النقدِ والتثريب من علماء عصره ([1])

وسورةُ «التّوبة» الّتي جاءت فيها الآيةُ الّتي نقومُ لِتبصّر ما فيها منْ معانِي الهُدَى الحاثّة على النّفير إلى طلبِ العلم النفيعِ إنّما هِي سورة « مَدَنِيّة» جاءت في رأسِ سُوَرِ «السّبع الطُّول» فهذه السَّبعُ طليعتُها سورة«البقرة» : «سنام القرآن» ورأسُ المعنى فيها « الأنفالُ والتَّوبة »

وإذا ما كان استهلالُ سورة «البقرةِ» الّتي هي طليعةُ «السّبع الطّول» قولَه تعالى:« **بِسْمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ** » فإنّ خاتمة السّورة الّتي هي رأس المعنى في «السّبع الطُّول » قولُه تعالى : « **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)** »(التوبة)

والعلاقةُ بيْن هذه الخاتمةِ ، وفاتحة «السّبْعِ الطّول» لا تخفى ، كما لا تخفَى العلاقةُ بين الكتاب والرّسول. استفتح القول في شأن الكتاب «القرآن» واختتمه في شأنِ الرّسول صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم.

والآية الأخيرة من سورة «التوبة» :« **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** » تلتفتُ إلى الآية الأولَى منها :« **بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** »

---

[1]) كتب البقاعي كتابًا يدفع به ما اعترض به عليه كتابًا عنوانه« الأقوال القويمة في حكم النقلِ من الكتب القديمة» وقد حقق الكتابُ ونشر في طلابِ العلم.

السُّورُ السّبع عُظمُ القول فيها في بيان الأحكام الّتِي عليها تتأسّسُ الدّولة الإسلاميّة ، ويتحقّق تماسُك المجتمعِ المُسلم على اتساعِه سواء في علاقةِ الأمّة بخالقِها - سُبْحانَه وَتعَالى- أوْ علاقتِها بالحياةِ كونًا وإنسانًا مناصرًا او مسالمًا أو مصادمًا.

وسورةُ «التّوبة» من أواخرِ ما نزل على سيّدنا رسول الله صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم في «المدينة»

رَوَى الإمام البخاريّ في كتاب « التّفسير» من صَحيحِهِ بسنده عَنْ أَبِى إِسْحَاقَ سَمِعْتُ الْبَرَاءَ - رضى الله عنه - قَالَ آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ بَرَاءَةَ، وَآخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ (يَسْتَفْتُونَكَ)

وكلّ ما سَبقَ مِن قولٍ في القتالِ والجهاد في سبيل الله تعالى وما كان من أهل الكتاب والمنافقين في السّور السابقتها هو كالتهيئةِ لمَا سيراه واقعًا في سورتي «الأنفال» و«التوبة» وإذا ما كانت «الأنفال» حديثًا عن غزوة «بدر» فإنَّ سورة الأنفالِ لها حديثٌ عن غزوة «تبوك» وهي من أواخر غزواتِه صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم .

فقه
موقع الآية من سورتـها

مِن أصول فقه المعنى القرآنيّ في آية من سورةٍ أن نكونَ على بصرٍ بخصوصيّةِ السُّورة نفسِها ثُمَّ على بصرٍ بموقع الآيةِ في نسق تلاوة السّورة.

والشّأنُ في السُّور الطِّوالِ والمِئين وبعضُ المثانِي أنَّها ذات معاقد(فصول) يتولى كلّ معقد موضوعًا أو مرحلة من مراحل المعنى القرآني،وهي معاقد يبنى ثانيها علىأولها،وثالثها على ثانيها...

وسورة«التوبة» ذات موضوع واحد هو الجهاد في سبيل والحثّ على قتال الكافرين والمنافقين ،والبراءة منهم، وهي أقسام ثلاثة:

وإذا ماكان الشأن في عظم سور القرآن في الأحزابِ الثلاثة الأول لكل منها ما يمثل مطلع السورة وبرعة استهلالها فإنّ بعض السور لم يكن لها ذلك كالذي تراه في سورة « الأنفال» و« التوبة» والسورة محمد» وسورو الممتحنة» و« الحجرات» فهذه سورٌ ليس لها مطلعٌ يمثل براعة الاستهلال ، بل كان القول فيها مباشرًا في ما سيقت له السورة

وسورة« التوب» موضوعها إلغاء المعادات التي عقدت مع المشركين وقاموا بنقضها، والحث على مجاهدة من صدَّ عن سبيل الله تعالى وعمَّا دَعت إليه سورة« الأنفال » من توحيد الله وطاعته ومناصرة أهل طاعته وبيان ما يجبُ أن يؤسَّس عليه ذلك الجهادُ في سبيلِ الله تعالى».

«فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»(ألأنفال: ١)

القسم الأول يبدأُ مِن أولها إلى نهاية الآية السابعة والثلاثين:« **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ»**

وهذا القِسم يبين عن ما دعا إلى نقص المعاهدة معهم ، وعن ضرورة قتال الذين يصدّون عن سبيل الله تعالى من المشركين والمنافقين.

والقسم الثّاني وهو صلب موضوع السُّورة ، من الآية الثامنة والثلاثين : **« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» إلى نهاية الآية الثانية والعرين بعد المئة:« وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ»**

والعلاقة بين خاتمة هذا القِسم الذي يمثل متن موضوع السورة ، وفاتحة هذا القسم جد ظاهرة ، ووثيقة. وهما متكاملتان : فاتحة القسم دعوة قوية إلى النفرة جهادًا في سبيل الله تعالى وخاتمتها دعوة قوية للنفرة إلى طلب العلمِ .

ليأتي القسم الأخير وهو كالخاتمة ، ويبدأ بالآية الثّالثة والعشرين بعد المئة : **« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» إلىنهاية السورة : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) »**

وبهذا يتبين لنا أن الآية التي نحن بصدد تبصرها الداعية إلى النفرة في سبيل الله تعالى طلبًا للعلم هي رأسُ المعنى القرآني في القسم الثاني الّذي هو متن موضوع السّورة.

والآيةُ الّتي تكون رأس السُّورة أو رأس القسم فيها تكون خلاصة المعنى وجمعته وزبدته.

•••••

جعلت السورة النفرة إلى الجهاد في طلب العلم النفيع هو جمعة الجهاد بل هو ما يؤسس عليه حسن جهاد الذين يصدون عن سبيل الله تعالى ، ذلك أن أحكام جهاد الذين يصدّون عن سبيل الله تعالى من الكافرين والمنافقين بالغة الدّقة من لم يكن بصيرًا بها ربما يقع فيما يفسد جهاده أو يأتي ما لا يُسترضي، على ما تراه ممّا كان من سيدنا أسامة بن زيد - رضِيَ الله عَنْهُما - حين قتل من جهر بالشهادتين حين علم أنّه مقتول ، فما كان من سيدنا أسامة - رضِيَ الله عَنْهُ - إلّا أن قتله حسبانا منه أنّه إنما نطق بالشهادتين تقية ، فلما علم الرّسول صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم غضب غضبًا شديدًا.

روَى الإمام مسلم في كتاب «الإيمان» من صَحِيحِهِ «بَابُ تَحْرِيمِ قَتْلِ الْكَافِرِ بَعْدَ قَوْلِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » بسندِه عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ - رضِيَ الله عَنْهُما - قَالَ : بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ – صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم- فِى سَرِيَّةٍ ، فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلاً ، فَقَالَ :" لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ " فَطَعَنْتُهُ ، فَوَقَعَ فِى نَفْسِى مِنْ ذَلِكَ ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِىِّ – صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم - « **أَقَالَ: "لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ" وَقَتَلْتَهُ؟!!!** ». قَالَ :قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلاَحِ. قَالَ : « **أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لاَ »**. **فَمَازَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَىَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّى أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ. »**

والله - سُبْحانَه وَتعَالى- يقُول:« **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** »(النساء: ٩٤)

فقه
خصائص نظم الآية
وما فيه من معاني الهدَى الإحسانية

في سورة « التوبة» يقول الحق - سُبْحانه وَبِحمْدِهِ - :

« وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ »(التوبة: ١٢٢)

على الرغمِ من أنَّ هذه الآية خاتمة القول في القسم الثّاني من السّورة ، والّذي يُمثل متن موضوعها إلّا أنّ هذه الآية تقوم بالبيان عن معنى يعادل ما أبانت عنه الآيات قبلها.

الآيات قبلها كانت تحثُّ على النفرة جهادًا في سبيل الله تعالى بقتالِ الذين يصدُّون عن سبيل الله تعالى من الكافرين والمشركين والمنافقين.

« مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) »

هاتان الآيتان تفيضان بالحثّ على المجاهدة بألنفس والأموالِ وقتال الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا ،وتفيض بالإغراء والترغيب فيما عند الله تعالى من المثوبة، وكان قد صدر ذلك بقوله - سُبْحانَه

وَتعَالى:« **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» (الآية:١١٩)** » آمرين بشيئين كليين:

الأول تخلية :«اتّقُوا اللهَ» وتقوى الله أعلى ضروب التقوى، وتكاليفيها واستحقاقاتها أعظم وأثقل .

والآخر تحلية «**كُونُوا مَعَ الصَّادِقِين**» فالكونُ معهم في الحياة الدنيا هو من جنته - سُبْحانَه وَبِحمدِه- فيها، هذه المعيّة هي النَّعيم الخالص. والمرْءُ يصحبُ في أخراه مَن صحبهم في دنياه، المرءُ مَع مَن أحبّ .

وجاء قوله تعالى :« **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** »(التوبة: ١٢٢) معطوفًا على قوله تعالى :« **مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ...** »

وقد استهل المعطوف عليه والمعطوف بأسلوب نفي إعرابًا عن نهيٍ وثيقٍ . : إلا أن النفي في قوله تعالى« **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا**» ترقّى إلى مقام الجحد لدخول لام الجحد على الفعل ، دلالة على أنّ النهي عن نفرتهم جميعًا إلى القتال قد يلحق بالأمّة ضُرًا ، فحقّ عليهم بمنطقِ العقلِ أن لا يكونَ ذلك منهم .

الأولى نهت عن أنَّ التّخلف عن الغزو، والأخرى نَهت عن أن يخرج المؤمنون جميعًا للقتال.

وفي هذا هداية إلى أنّه ليس حكيمًا أن يكون المجتمع المسلم كلُّه على ثغرة واحدةٍ ، ويدع سائر الثغرات، فالحكمةُ قاضيةٌ بأن يكونَ على كلّ ثغرةٍ مَن يقوم لها وبها ، فنهاهُم عن ينفروا جميعًا لقتالِ الّذين يصدُّون عن سبيلِ الله تعالى ويبغونَها عِوجًا، بل لا بُدَّ أن تكونَ هنالك ثلة تنفرُ إلى ما لا تستقيم الحياة إلّا به « العلم» فكان قولُه تعالى: «**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** »

في تأويل هذه الآيةِ مذهبان كليَّان : ([1])

الأوّل : يذهبُ إلى أنَّ الخطابَ في هذه الاية كالتي قبلها موجّهٌ إلى الحضِّ على النَّفرةِ إلى قتال الصادين عن سبيلِ اللهِ تعالى ، ويكون تقدير الآية على هذا : فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فرقة طائفة تقاتبل الصادّين عن سبيل الله تعالى ، وجلست طائفة مع النبيّ صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم ليتفقهوا في الدّين، ولينذروا قومهم الخارجين للغَزو إذا رجعوا إليهم مِن غزوِهم الصادين عن سبيل الله تعالى » ([2])

وهذا المذهبُ في التَّأويلِ أليقُ بحالِ الأمّةِ زَمَنَ النّبيّ صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم حين كان الجهادُ في سبيل الله تعالى بالأنفسِ والأموالِ غزوًا ومقاتلةً لِمَن يَصُدّ غيرَه عَن سبيلِ اللهِ تعالى وإماطةً للأذَي عَن طريقِ تبليغِ الدَّعوة إلى العبادِ ، فمن شاءَ أن يؤمنَ طوعًا ، فيساند ، ومَن شاءَ ألّا يؤمن ويبقَي على معتقدِه ، مع المسالَمةِ لِمَن آمن ومَن دعا بالحُسنى . ([3])

---

[1]) ينظر المذهبان في تفسير «مفاتيح الغيب» تأليف الفخر الرازي: ابي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي خطيب الري (ت: ٦٠٦هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت،الطبعة الثالثة - ١٤٢٠ هـ ،ج:١٦ص ١٧٠
وكتاب : «إعلام الموقعين عن رب العالمين » تأليف ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت: ٧٥١هـ) تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم ،الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ،الطبعة: الأولى. عام: ١٤١١هـ ،ج: ٢ص١٧٨

[2]) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد. تأليف: تبن عجيبة: أبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الفاسي (ت: ١٢٢٤هـ) ، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان ،نشر حسن عباس زكي – القاهرة، طبع عام ١٤١٩ هـ. ج: ٢ص٤٤٢
وانظر معه التَّفْسِيرُ البَسِيْط ـاليف الواحدي: أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري(ت: ٤٦٨هـ)جققه جمع من الباحثين في جامعغة الإمام بالرياض. نشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ .ج:١١ص٩٤

[3]) أشيرُ بهذا إلى أنَّ الجهادَ في سبيل الله تعالى بالأنفس والأموال ليس إكراهًا لأحد أن يدخل في الإسلام، ولا أن يستولي على أرضهم وأموالهم . كلّاً « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ»(البقرة:٢٥٦)
إنما يكون الجهاد والقتال في سبيلِ اللهِ تعالى حين يحالُ بيْن الدَّعوة أن تَصلَ إلى آذان النّاسِ ؛ ليتبصَّروا ما تدعو إليه ويتفكروا ، ويتخذوا لأنفسِهم بأنفسِهم قرارًا هُم

مسؤولون عنه أمامَ خالقِهم - سُبْحانَه وَتعَالى- يومَ الدين ، فمَن شاءَ أن يؤمنَ ويُسانِد ويؤازِرَ الدّعوة ، بما يطيقُ ويُحسن ، فله حينئذٍ ما للمسلمين، وعليه ما عليهم . أخوة في الله تعالى لا تعرف تمييزًا إلا بالتّقوى والعمال الصالح .

وإمّا أن يبقَى على معتقدِه شريطةَ ألّا يُصادم الدَّعوة ، ولا يعادِي مَن يدعُو بالحُسنى إليها ومن استجاب لها. يكون غيرَ مسلم إلّاأنه مسالمٌ محايدٌ.

وأمَّا مَن أبَى واتّخذ موقف المصادَمة والمعاداة ، ومنعِ الدَّعوة الإسلاميّةِ من أن تسلك سبيلها إلى الآخرين لتُبين لهم الحقَّ والخيرَ، فهذا حقٌّ أن يُقاتل حتَّى يكفَّ عن المصادَمة والصدّ عن سبيل الله تعالى، وحرمانِ الآخرين من أن يسمعوا الدَّعوة ، وأن يتخذوا قرارَهم بأنفسِهم طوعًا لا كرها ، وأمنًا لا رهبا .

هذه المقاتلةُ ليست لِمن كفَر وسالم ، بلْ لِمن كفرَ وصادمَ ، ومنعَ الآخرين مِن حقوقِهم أن يسمعوا ويفكروا ويقرروا لأنفسِهم.

ما كان القتالُ في الإسلام قطُّ على الكفر .

كان القتالُ عن صدّ الدّعوةِ عَن أن تبلغَ العبادَ والبلادَ . ومسالك الصّدّ وأدواته ومستوياته تنوعت في عصرنا ولو شئتأن ترصد تلك المسالك والأدوات لهالك ما توجه به دعوة الإسلام من الصادين داخل العالم الإسلاميّ وخارجه ، ومن المتنسبين إلىاإسلامِ ومن غيرِهم، فالأمر يحتاج إلى مزيد مدارسةٍ وتبيين ، ولعليّ أفرغ لذلك – إن شاء الله تعالى -

حقًا إنّه لا نفع للإسلام في من يُكره عليه ، ولا نفع - أيضًا - لمن أُدخلَ فيه كرهًا. إنه – لا محالة - سيستحيل إلى منافق يكونُ بأسُه على المسلمين أشدَّ من بأس الكافرين.

لا يُمكنُ لِدعوةٍ أن تكره النّاس على الدّخول فيها ، ثُمَّ يستحيلون عدوًا لدودًا لها في الخفاء . ظاهرهم لها ، وباطنهم عليها.

لا تكون دعوة قويمة بشريّة كذلك أبدًا، فكيف إذا ما كانت دعوة إلهية ؟

تلك هي حقيقة الجهاد في سبيل الله تعالى بالأنفس والأموالِ وذلك مقصدِها.

فالنَّاس مع «الإسلام» ثلاثة :

= مسلم مسَاندٌ مؤازرٌ .

= وغيرُمسلم مسالم محايد . له على المسلمين حقٌّ حمايته وبرّه وإقساطه.

« لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »(الممتحنة:٨)

= وغيرُ مسلمٍ مصادمٌ صادٌ مقيمٌ للكُدى والعرقيل في سبيل الدعوة ، مقاتلٌ السَّاعين فيها، فهذا حقهُ أقولُ حقه أن يُقاتلَ لا أن يُقتل، فإنْ كَفَّ كُفّ عَن قتاله. وعُومل معامل الثلة الثّانية.

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ

والآخرُ يذهبُ إلى أنّ الآيةَ حثٌّ على النَّفرة في طلبِ العلم ، وأن يكون ذلَك من ثلةٍ تحملُ مِن كلّ علمٍ ما تحتاجُه الأمّة ، ثم ترجعُ الثلّة بتلك العلومِ إلى قومِها ؛ لتقيمَ حياتَهم على هديٍ تلك العلومِ النّفيعة المخرجةمن الظلماتِ إشلَى النّور ، فيَتحقّقُ للأمَّة عزُّها وغُنْيتُها عَن غيرِها.

وهذا المذهبُ هو الّذي بدأ به الزّمخشريّ في بيان تأويل الآية.([1]) وإليه ذهب الطاهر ابن عاشور مبينا : « وَإِذْ قَدْ كَانَتِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ قَدْ حَرَّضَتْ فَرِيقًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الِالْتِفَافِ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْغَزْوِ لِمَصْلَحَةِ نَشْرِ الْإِسْلَامِ نَاسَبَ أَنْ يُذْكَرَ عَقِبَهَا نَفْرُ فَرِيقٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ لِيَكُونُوا مُرْشِدِينَ لِأَقْوَامِهِمُ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ.

وَمِنْ مَحَاسِنَ هَذَا الْبَيَانِ أَنْ قَابَلَ صِيغَةَ التَّحْرِيضِ عَلَى الْغَزْوِ بِمِثْلِهَا فِي التَّحْرِيضِ عَلَى الْعِلْمِ إِذِ افْتُتِحَتْ صِيغَةُ تَحْرِيضِ الْغَزْوِ بِلَامِ الْجُحُودِ فِي قَوْلِهِ: مَا كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ [التَّوْبَة: ١٢٠] الْآيَةَ وَافْتُتِحَتْ صِيغَةُ التَّحْرِيضِ عَلَى الْعِلْمِ وَالتَّفَقُّهِ بِمِثْلِ ذَلِكَ إِذْ يَقُولُ: وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً. "([2])

هذا المذهبُ – عندي - هو الأليقُ بحالِ الأمّة في زمانِنا.

هو زمانٌ لم يَعُد الجهادُ فيه جهادَ نشرٍ للدعوةٍ بالأنفس لما يلقاه المسلمون من بغي من أبناء جلدتهم ومن خارجهم ، بل هو جهادُ دفع

كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)»(محمّد)
بسطت القول تبيينًا لهذا الأمر الذي يحرصُ خصوم الحق والخير علىأن يتخذوه مجالًا للتضليل والإفك .

[1]) الكشاف للزمخشري ومعه حاشية"فتوح فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب ،تأليف الطيبي: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت: ٧٤٣ هـ) . تحقيق جمع من الباحثين، نشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ،الطبعة الأولى، عام:١٤٣٤ هـ.ج: ٧ص ٣٩٩

[2]) **التحرير والتنوير المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ) الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس. سنة النشر: ١٩٨٤ هـ .ج: ١١ص: ٦٠**

صولة أعداء الأمة عليها وتكالبهم ، كما أنبأ النَّبيّ - صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم .

روَى أبو داود فِي كتاب«الملاحِم» من سُننِهِ بسَنَدِهِ عَنْ ثَوْبَانَ - رضِيَ الله عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم :

« **يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا** ». فَقَالَ قَائِلٌ :وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟

قَالَ : « **بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ** ». فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا الْوَهَنُ ؟

قَالَ : « **حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ** ».

حالُ أمّتِنا كما ترى عينكَ ليس بحالِ خروجٍ لنشر الدعوة بالأنفس وحمايتها ممن يصد عنها ، بل حالُ اجتهادٍ لِدفعِ ما يُحيطُ بها ، وأعظمُ سبلِ هذا الدَّفع بعد طاعةِ الله تعالى وكمال الولاء له تعالى إنما هو سبيلُ العلم النّفيعِ فِي كلّ ما يتعلق بالحياة.

ومن جليل بلاغة البيان أن يكون النظم محتملًا تأويله على وجوهٍ كلّها قويم .

في هذا توسعةٌ على الأمّة ؛ ليأخذَ كلّ جيلٍ ما يوائِم عصرَه وحاله ، فهو صَالح لكل زمان ومكان بل هو المصلح كل زمانٍ ومكانٍ .

ما تنزلُ بالنَّاس في أيِّ عَصرٍ أوْ مصرٍ نازلةٌ إلّا ولَها في كتابِ اللهِ تعالى وسُنّة رسولِه - صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم - علاجها . علم ذلك من رضِيَ واجتهد، وجهِلَ من أبَى .

ويجرِي النّظر فِي ما في هذِه الآيةِ مِن دقائقِ معانِي الهُدَى ولطائفِه على هذا المذهبِ القائل بأنّ الآية مسوقةٌ للدعَوة إلى أن تنفرَ ثلةٌ في سبيلِ طلب العلم النفيع المخرج الأمّة من الظلمات إلى النّور.

فـقه

ما سِيـقَ لَهُ صَدرُ الآيَةِ

على الرَّغم مِن أنَّ الآيةَ مَسوقةٌ – على ما اخترتُه – إلى التَّحريضِ على النَّفرة إلى معاهدِ العلمِ المُخرج مِن الظّلمات إلى النُّور إلّا أنَّها صُدّرت بِنهْي عَن نفرةٍ جماعيَّةٍ للمؤمنِين إلى الجهادِ في سبيل الله تعالى بالأنفس والأموالِ.

وجاءت العبارةُ الافتتاحية مصوغةً على نهج بالغ القوّةِ فِي الدَّلالة على ما لا يرضاه الله تعالى أن يكونَ ، لِما فِيه مِن ضُرٌ بالأمَّةِ إن كان، فقَال - سُبْحانه وَبِحمْدِهِ : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً»

ظاهرُ العبارةِ الإخبار، وباطنُها المقصُود «النّهْي» ولم يأتِ المراد بأسلوبِ نهي صريح : لم يقل : لا تنفروا كافة إلى الجهادِ بالأنفسِ والأموال في سبيلِ الله تعالى، لأنّ صيغة «النّهي»: «لاتفعل» وإنْ كانت موضوعةً عند جمهرة أهل العلم بأصول فهم معهودِ اللسان العربي في الإبانةِ إفهامًا وفهمًا أنّها للتّحريم إلّا أن يصرفَ عن ذلك صَارفٌ قويٌّ ، فهي غير قطعيةُ الدّلالة على « التّحريم» بل إن من أهل العلم من ذهب إلى أنّه ليس مقتَضَى صيغة النهي «التّحريم» ، بل «التّنزيه»([1])

---

[1]) ينظر في هذا كتاب: البحر المحيط في أصول الفقه، تأليف البدر الزركشي: ابي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: ٧٩٤هـ) الناشر: دار الكتبي ،الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.ج: ٣ص: ٣٦٥، ٣٦٦

جاء بِالمعنى في صيغة" النفي" المؤكّد بل في صيغة "الجحد" الذي هو أقوى من النفي المؤكد ومن النّهي أيضًا.

أنت إذْ تقول لولدك : ما كنتُ لأهمل القوامة عليك رعاية وحماية . أنت لا تنفي أن يكون منك ذلك ، أن تؤكد أنك غير مؤهل لأن يكونَ منك ذلك، لوأنّك أردتَ ما استطعتَ ، ففيك ما يحجزك عن ذلك.

وهذا أقوَى مِن أن تقولَ : ما يكونُ لي أن أفعل ، فتدخل «اللام» على اسم «كان» فهذا مفيدٌ توكيدَ نفي الفعلِ عنك ، ولكنك لا تذهب فيه إلى أن ذلك لا يصلح أن يكون منك جبلةً .

قوله - سُبْحانَه وَتعَالى :« مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً » هديٍ إلى أنَّ منطقَ العقل والواقع يأبى أن يكونَ ذلك منهم ، ولذا كان الإعرابُ عنهم بقوله «المؤمنون» دون « الذين آمنوا» إيماءً إلى أن رسوخهم في الإيمان ، ورسوخِ الإيمانِ فيهم يُحاجزهم عن أن يكون ذلك منهم .

وفيه تعريضٌ بمن تحدّثه نفسُه أن يفعلَ . لأنّ هذا يُشيرُ إلى نقصٍ في إيمانه نقصًا حمله إلى أن يلتفتَ إلى هذا الأمرِ الّذي يلحق مضرةً بالأمة. فتُؤتَى من حيثُ أرادت أن تَحمِي عزّها.

نفرهم جميعًا للغزو وقتال الذين يصدون عن سبيلِ الله تعالى وترك المجتمع بغيرِ من يقيم حاجاتِه لا يُقبلُ أن يقدم عليه أحدٌ ؛ إنّه مخالفٌ فطرةَ العقلِ قبلَ أن يكون مخالفًا حكمَ الشَّرع ، فلو أنّ الشّرعَ سكتَ عنه لكان فِي العقلِ الفِطريّ ما يمنعُ منه، فمَن فعلَ فما خالفَ حُكمَ الشَّرعِ فحسبُ بلْ خالَفَ مَنطِق العقلِ الفِطريّ ، ومخالفةُ العقلِ الفطريّ أنكى من مخالفة الشّرع.

كذلك يسلك البيانُ القرآنيّ إلى توكيدِ المعنَى وتقريرِه في الأفئدة، لما لهذا المعنى من أهمية بالغةٍ في حياةِ الأمة، أفرادًا وجماعات.

إذا رأيت الوحي يسلُك في توكيد المعنى مسلكًا غير صريحٍ من استعمال أدوات التّوكيد ، فاعلم أنّه يلفتك إلى الأهميّة العظمى لما يلفتك إليه سواءٌ في حياتك الخاصة أو حياة قومك وأمتك.

عليك أن تَتبصَّر مسلكَ القرآن فِي توكيدِ المعاني. فأنت تفهمُ عظيمَ قدرِ المعنى ، وأثرَه في حياتِك مِن خلالِ تبصُّرك منهجَ القرآن في سلوكِ توكيدِ هذا المعنى في الفؤاد.

يقُول الطاهر ابن عاشور: « وَالْإِتْيَانُ بِصِيغَةِ لَامِ الْجَحُودِ تَأْكِيدٌ لِلنَّفْيِ، وَهُوَ خَبَرٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي النَّهْيِ فَتَأْكِيدُهُ يُفِيدُ تَأْكِيدَ النَّهْيِ، أَيْ كَوْنُهُ نَهْيًا جَازِمًا يَقْتَضِي التَّحْرِيمَ. وَذَلِكَ أَنَّهُ كَمَا كَانَ النَّفْرُ لِلْغَزْوِ وَاجِبًا لِأَنَّ فِي تَرْكِهِ إِضَاعَةَ مَصْلَحَةِ الْأُمَّةِ كَذَلِكَ كَانَ تَرْكُهُ مِنْ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَاجِبًا لِأَنَّ فِي تَمَحُّضِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ لِلْغَزْوِ إِضَاعَةَ مَصْلَحَةٍ لِلْأُمَّةِ أَيْضًا، فَأَفَادَ مَجْمُوعُ الْكَلَامَيْنِ أَنَّ النَّفْرَ لِلْغَزْوِ وَاجِبٌ عَلَى الْكِفَايَةِ أَيْ عَلَى طَائِفَةٍ كَافِيَةٍ لِتَحْصِيلِ الْمَقْصِدِ الشَّرْعِيِّ مِنْهُ،

وَأَنَّ تَرْكَهُ مُتَعَيِّنٌ عَلَى طَائِفَةٍ كَافِيَةٍ مِنْهُمْ لِتَحْصِيلِ الْمَقْصِدِ الشَّرْعِيِّ مِمَّا أُمِرُوا بِالِاشْتِغَالِ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ

فِي وَقْتِ اشْتِغَالِ الطَّائِفَةِ الْأُخْرَى بِالْغَزْوِ. وَهَذَا تَقْيِيدٌ لِلْإِطْلَاقِ الَّذِي فِي فِعْلِ (انْفِرُوا) ، أَوْ تَخْصِيصٌ لِلْعُمُومِ الَّذِي فِي ضَمِيرِ (انْفِرُوا) .

وَلِذَلِكَ كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَصْلًا فِي وُجُوبِ طَلَبِ الْعِلْمِ عَلَى طَائِفَةٍ عَظِيمَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وُجُوبًا عَلَى الْكِفَايَةِ، أَيْ عَلَى الْمِقْدَارِ الْكَافِي لِتَحْصِيلِ الْمَقْصِدِ مِنْ ذَلِكَ الْإِيجَابِ. وَأَشْعَرَ نَفْيُ وُجُوبِ النَّفْرِ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ وَإِثْبَاتُ إِيجَابِهِ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ بِأَنَّ الَّذِينَ يَجِبُ عَلَيْهِمُ النَّفْرُ لَيْسُوا بِأَوْفَرَ عَدَدًا مِنَ الَّذِينَ يَبْقَوْنَ لِلتَّفَقُّهِ وَالْإِنْذَارِ، وَأَنْ لَيْسَتْ إِحْدَى الْحَالَتَيْنِ بِأَوْلَى مِنَ الْأُخْرَى عَلَى الْإِطْلَاقِ فَيُعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ مَنُوطٌ بِمِقْدَارِ الْحَاجَةِ الدَّاعِيَةِ لِلنَّفْرِ، وَأَنَّ الْبَقِيَّةَ بَاقِيَةٌ عَلَى الْأَصْلِ، فَعُلِمَ مِنْهُ أَنَّ النَّفِيرَ إِلَى الْجِهَادِ يَكُونُ

بِمِقْدَارِ مَا يَقْتَضِيهِ حَالُ الْعَدُوِّ الْمَغْزُوِّ، وَأَنَّ الَّذِينَ يَبْقَوْنَ لِلتَّفَقُّهِ يَبْقَوْنَ بِأَكْثَرِ مَا يُسْتَطَاعُ، وَأَنَّ ذَلِكَ سَوَاءٌ. وَلَا يَنْبَغِي»([1])

إنَّ للقرآن سُننًا بيانيّة، ومنهاجَ إبانةٍ مَن سعَى إلى استبصارِها تتَّفحتْ له بعضُ خزائنِ دقائق «**المعانِي الإحسانيّة** » ولطائقها الّتي هي طعامُ أفئدةِ النُّبلاءِ.

النّبلاءُ لا يشتهون «**المعانِي الجُمهوريّة**» الّتي هي طعامُ الدّهماء وسَواد النَّاس ، والّتي بها يستبقى المرءُ في مقامِ «**الّذين آمنوا**» وهو فاتحةُ مقامات القرب الأقدس من ربّ العالمين الذي خاتمته «**الصّدّيقيّة**»

هم يشتهون «**المعانِي الإحسانيّةَ**» الّتي تتصاعَدُ بهم فِي مقاماتِ القربِ الأقدسِ حتَّى تُهيّئهم لأن يَحوموا حولَ حِمَى مقامِ «الصّديقية» أعلَى مقامٍ يُمكنُ لعبدٍ غيرِ نبيّ أن يبلغَه ، ومنْ حامَ حَولَ الْحِمى يُوشِك أن يَقعَ فِيه.

•••••

---

[1]) آثرت تحمّل نقل نص كلام الإمام الطاهر ابن عاشور على طوله لتذوق منهجه في التفكير والتعبير ، إغراء لك أن تعمد إلى أسفار الأعيان من أهل العلم، فعلوّ الهمة الذي هو من أعظم الحُلَى التي يجب أن تتحلّى بها – طالبَ العلم – يوجب عليك أن تطعم من الأعيان ، لا أن تستسهل فتحمل عمن دونهم ، فاحذر.فأنما أنت نافر من قومك ووطنك تطاب علما يخرج من الظلمات إلى النور أو بعبارة أعلى أنت تطلب أن تكون من ورثة رسول الله صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم أو تسمع : طالبًا أن تكون من ورثة رسول الله صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم

فقهُ نَظمِ

ما سِيق إليه متنُ الآيةِ سوقًا رئيسًا

ثمَّ يأتِيك من بعدُ الحثّ الفتيّ على أن تكونَ ثلة مِن المؤمنين ينفرون إلى طلبِ العلم النّفيع الذي يحقّق لهم ولقومهم ولأمتهم عزَّها ومنعتها ، وأمنها في مسيرها في الحياةِ ، ومصيرِها يومَ القيامة، فيقُولُ - سُبْحانه وَبِحمْدِهِ :

« **فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** »

كما أنّ النهي قبلُ في صدر الآية لم يأت بصيغته الصريحة : جاءِ في صورة «أسلوب خبري» مفيد للجحد ، لم يأت في هذه الجملة الحثّ بسبيل صيغة «الأمر» لم يقل : لِتنفرْ طائفة منهم..» : جاء بالحثَّ في أسلوب «تحضيض» ؛ ليفيد إحكامَ إيجاب المأمور بِه.

أسلوبُ «التَّحضيضِ» أقوَى في الدّلالة على طلبِ وقوعِ الفعلِ مثلما كان «الجحد» أقوَى فِي الدَّلالةِ على «النَّهي» ومحققًا إحكام دلالته على«التحريم».

كذلك يسلكُ البيانُ القرآنيُّ مسلك الدَّلالةِ المُحكمةِ التي لا تحتملُ تأويلًا ،وصرفًا إلى معنًى لا يراد.

وهذا باب في القرآن جديرٌ بأن يستقرئ استقراءً تامًا سواءٌ في أبواب أحكامِ العقيدةِ ، وأبوابِ أحكام الشّريعةِ ؛ لتُعلمَ المواضعُ الّتي يكونُ فيها العدولُ إلى ما يحققُ إحكامَ الدَّلالةِ ، ،ولتُعلمَ المعانِي الّتي اقتضَتْ ذلك العدولُ ، وليعلمُ ما بيْن هذه المواضِع والمعاني من اتفاقٍ واختلافٍ في العدولِ إلى ما يدل على المراد دلالةً قطعية.

•••••

و«التَّحضيضُ» في دلالتِه على «الأمر» وجوبًا متضمّنٌ معنى النّصح، ومعنى الشّفقة، أيضًا وكأنّه يوحي إليك أنّه لا يأمرُك بما ينفعُ غيرك ، هو يأمرك بما ينفعُك أنت ، وكأنّه يقول لك : ذلك أمرٌ ما كان مثلك بحاجةٍ إلى يُؤمرَ بِه إنْ هو تبصّره وخَبِره ، لو أنّه فعل لوجد من نفسِه ما يحفزه إلى أن يبادر إليه ، وأن يقومَ به ، وأن يفيَه حقّه.

وكأنك تشم رائحة « التعريض» إشفاقًا .

كذلك يريدُ أن ما يطلبُه مِنك بسبيل «التَّحضِيض» حرًى بك ألَّا تتوقَّف في القيامِ به، عليك أن تبادر إليْهِ ، فإنَّ فيه من النّفع لك ما لا تطيق أن تتأخَّرَ في إنفاذِه ، فإنَّ التّأخر في إنفاذه قد يترتب عليه ما يُمكن أن يُلحقَ بك ضُرًا .

كذلك يسلُك بك البيانُ القرآنيّ مسلكًا يجعلك لا ترَى أنَّ من العقل أن تقومَ إلى ما طُلب منك بعد هُنَيه ، بل عليك أن تبادر، يَجعلك تدَع كلَّ ما بيدك لتمارسَ ما طُلبِ منك.

ذلك مسلكٌ لطيفٌ إلى استنفارِك إلى طلبِ العِلم .

كذلك يمزِجُ البيانُ القرآنيّ المعاني التثقيفية الَّتي تفيضُ بالتَّرغِيب في القيامِ بالمعاني التَّكليفيّة ، ولا سيّما المعاني التّكليفيّة الّتي فيها شيْءٌ مِن الثِّقلِ على بعضِ النّفوسِ لما فيها مِن استحقاقٍ لعظيمٍ مِن الصّبرِ الجميلِ وَمن العزمِ الفتيّ ، ومن امتلاك مهاراتٍ وأدواتٍ عديدةٍ متنوّعةٍ.

المعاني التّكليفيّة في الكتابِ والسُّنّة ، وإن كانت جميعًا في طاقة مَن يكلّف بها، فإنّ السّنة البيانيّة للقرآن الّتي لا تَحولُ ولَا تَزولُ أنّ الله - سُبْحانه وَبِحمْدِهِ - لا يكلّف نفسًا إلا وسعها([1]) وبرغم من ذلك ، فإنَّ ما في

[1]) ذكر القرآن هذه الحقيقة في ستى مواضع إعلامًا بعظيم هذه المنة الربانية:
(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا

وسع النّفسِ المكلفة تفاوتٌ في استحقاقات القيام به ، فليس كلّ تكليفٍ عقديّ أوْ شرعيّ سواءً ، فمِن بعض هذه التكليفاتِ ما تكونُ الحاجة معه إلى كثير مِن الصَّبر الجميلِ ، والعزم على الإتقانِ ،وبلوغ الغايةِ ، وامتلاكِ مهاراتٍ وأدواتٍ ، والصبر على التّعلّم والتدرب ومنها طلبُ العلمِ ، ولا سيّما العلم ببيان الوحي قرآنا وسنّة، فتكاليف طلب هذا العلمِ جدُّ كثيرةٍ ومتنوّعة، وثقيلةٍ أيضًا على بعضِ النّفوس الّتي لم تعتد البعدَ عمّا تشتهيهِ من زُخرفِ الحياةِ الدّنيا ولَعلَعِها.

في مثل هذا يمزجُ الحقُّ - سُبْحانَه وَتعَالى- بالمعانِي التّكليفيّة المعانِي التثقيفيّة، الّتي يجعلُ حسنَ تبصّرها وتذوقها المعنَى التَّكلفيّ خفيفًا على النَّفسِ، بل قد يحيلُ هذه المعاني التّكليفيّة الثّقيلة إلى شيْءٍ تشتهيهِ النّفس الصفيّة، وتأنسُ به، وتتشوفُ إليه.

وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)(البقرة:٢٣٣)

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)(البقرة:٢٨٦)

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)(الأنعام:١٥٢)

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (الأعراف:٤٢)

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (المؤمنون: ٦٢)

لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) (الطلاق :٧)

يحسنُ أنْ تقرأ كلَّ آية وتتبصَّر ما فيها، ليتبين لك وجه اصطفائها لينبئَ الله تعالى فيها أنَّه جَلّ وعلَا لا يكلف نفسًا إلا وسعها. فإنه لا يضع هذه الحقيقة في هذه المواضع إلا لأمر متعلق بها، حاول أن تتبيّن ما تشترك هذه المواضع فيه لتكون مشتركة في أن يضعَ الله تعالى في كلّ هذه الحقيقة الربّانية.

وفي الوقتِ نفسِه عليك أن تتخلّق بهذا . ألّا تكلف أحدًا فوق طاقته لمجرد أن لك عليه سُلطانا أو أن تستشعر حاجته إليك أو للعمل، كما تفعل ثلة من الإدراايين ، وثلةٌ من رجال الأموال .(أقول الأموال) فرجال الأعمال في عصرنا ومصرنا جد قليلٍ.

ولذا كان البصر بمنهاج القرأن في تثقيفِ النّفسِ الإنسانيّة لتقبلَ على ما تكلف به إقبال محبة ، وتشوّفٍ وتشرف ، واستلذاذٍ.

يقول سيدنا رسول الله صَلّى الله عليْه وَعلى آله وصحبه وسلّم :

« وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ ».(رواه النسائي في كتاب: عشرة النساء)

لا تكون الصَّلاة قرة عين إلّا إذا كان المتعبّد بها قد فقه ما فيها من أسرار وعطايا ، وذاق ما فيها من الهدى المُفَعِلِ فيه المعنى الحَقّ لفاتحة الصّلاة : «الله أكبر» فيستحيلُ هذا «المفتاح» من كونه منطوقَ لسان إلى أمرٍ يجرى فيه جريان الدّم في عروقه، يتخلّل كلَّ ذرةٍ فيه ، فلا يشعرُ بأنّ ثَمَّ ما هو كبيرٌ سواه جلّ جلاله ، بل سيبلغ ما فوقَ ذلك: لا يشعُرُ أن هنالك شيئًا سواء - سُبْحانَه وَتعَالى. «كأَنَّك ترَاهُ» : مقامُ المُراقبةِ الفُؤادِيّة»

كذلك تتوافدُ عليك المعاني من الإعربِ بـ «لولا» والعدول عن صريح الأمر إلى « **التّحضيض**»

•••••

ثمّ تبصر قوله - سُبْحانَه وَتعَالى : «نفر» وما في اصطفاء هذا الفعل دون غيره ممّا يقاربُه في أصل المعنى، كان يمكنُ عربيةً في غير القرآن أن يقال : "خرج: ،و"ذهب" ونحو ذلك ولكنّه اصطفى هذا الفعل : «نفر» لما يحملُه من معانٍ اكتسبها من السّياقات الّتي يستعمل فيها.

هذا الفعلُ« نفر» حين يرِدُ على سمعك يتوافد على فؤادك عَمَلان جليلان للفعل « نفر» فيهما حضور: "الجهاد" و"الحجّ".

جاء في صدرِ الآية استعمال الفعل: «نفر» في سياق الجهاد بالأنفس والأموالِ في سبيل الله - سُبْحانَه وَتعَالى- قتالا للصَّادّين عن الحقّ والخير، وكذلك يأتِي الفعل مستعملًا في سياقِ أفعال «الحجّ» : في ارتحالِ الحَجيج يوم عرفة بعد غروب الشمس وقد غفر لهم ، وخرجوا من ذنوبهم كيوم ولدوا إلى «مزدلفة» ، وتُسمّى «نفرة الحجيج» حين يَسمعُ الفؤادُ في هذا

الأية الفعلَ «نفر» يستحضر هذين العملين : « الجهاد» و« الحج » والشَّأنُ في«الكلمة» كالإنسان تحمل منْ كلّ مساقٍ تقومُ فيه شيئًا يبقَى فيها مَمزوجًا بما وُضِعتْ له، كما أنَّ الإنسانَ كثيرَ الأسفارِ والارتحال منمجتمعٍ إلى آخر ، هُو يحملُ مِن كلِّ مجتمعٍ وبلدٍ بعضًا من عاداته وسماتِه يمزجُها بما فُطر عليه في مجتمعِه وقومِه، فكلّما تعدّدت المساقاتُ الّتي استعملت فيها الكلمةُ وتنوَّعت كلَّما كانت حُبْلَى بفيضٍ من المعاني. ولا يبقَى المَعنى الَّذي وضعت له أوَّلًا على ما كان عليه قبلُ ساذجًا، بل هُو قد امتزجتْ فيه معانٍ أخرُ، على ما تراه مثلًا في معنى «الباء» الموضوع لمعنى «الإلصاق» واستعملَ في سياقات عدّة بمعانٍ أخر،مع بقاء شيْءٍ من معنى «الألصاق» إنّه معنًى لا يفارق« الباء» حيثُ حلَّ، فإذا ما دلّ على «السّببية» الموضوع لها «اللام» أوالظّرفية» الموضوع لها «في» ونحو ذلك لا تكون «الظّريفيّة» المفادة منه كـ«الظّرفية المفادة من« في» وكذلك الشبيية المفلدة من «الباء» ليست كمثلها السببية المفادة من «اللام» قوله «نفر» يهدي إلى أن الارتحال إلى طلب العلم النفيعِ المُخرج من الظّلمات إلى النور فيه من معاني «الجهاد» و«الحج» واستحقاقاتِهما، فما هو كمثلِه ارتحالٌ إلى تحجارةٍ أو نحوها .

طالبُ العلم في هجرته وارتحاله من أهلِه وقومِه ووطنِه فيه معنًى من معاني «المجاهد»،ومعنى من معاني «الحاج» النّافر من «عرفات» إلى «المزدلفة»، وعليه أيضًا من الاستحقاقاتِ ما على هذين: «المجاهد» و«الحاج» من التّجرّد من الالتفات الفؤادي إلى الأقْوام والأوطان، فلا يبقَى أمامَه إلّا اللهُ - سُبْحانَه وَتعَالى.

طالبُ العلم إذا استشعر الغُربة أو الاغتراب ، وهو يطلبُ العلمَ النفيع بعيدًا عن قومِه ووطنِه ، فإن في طلبِه هذا نقصًا .

عليه أن يسعَى إلى تطهير فؤادِه ونفسِه من ذلك ، وإلّا كان ذلك عائقًا له عن حسن الإفادةِ من طلب العلم فلا يكاد يتحول من مقام حملِ العلمِ إلى مقامِ خدمته .

لعلّ في طاقته في طلبِ العلمِ ما لا يَعصِمُهُ من استحضارِ قومِه ووطنه في عبادته : طلب العلم النفيع ، غفخرَّة أن يسعَى إلى أن يعرف تلك العوائق ،وان يتطهر منها،وذلك بعضٌمن المجاهدةِ في تحقيق الصالحاتِ ، فليستعن بالله تعالى ولا يعجز،ولا ييأس ، فالفراسانُ لا يعجزون،ولا ييأنسون إنهم في معية ربهم - سُبْحانَه وَتعَالى-

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)(البقرة:١٥٣)

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)(النحل: ١٢٨)

•••••

إذا ما كان الله - سُبْحانَه وَتعَالى- قد أعرب عن فعل طلال العلم بقوله(نفر) فإنه أعرب عن أهليهم بقوله« فرقة» وأعرب عن النافرين إلى طلب العلم بأنهم «طائفة»:« فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ » وفي هذا الإعراب لطائف .

في الإعراب عن قوم من ينفر منهم إلى طلب العلم بـ« الفرقة» إشارة إلى أنّهم يجب أن يكونوا كذاك، أو يفارقهم حسًا ومعنى، فكما فارقهم بجسدجه، فلا تتعلق نفسِهم بهم، تعلقًا يعيقه عن الصبر الجميل في طلب العلم خارجَ الأوطان، هذه الفارقة ليست عن بغضٍ أو استغناء، إنما هي فرقة تفضس إلى جليل لقيا وجميلها .

تقَولُ سُلَيْمى لو أقمتَ بِأرضنا • ولم تَدْرِ أني لِلمُقَامِ أطَوِّفُ

ويقول أبو تمام:

أآلفة النّحيب كم افتراق • أظلّ فكان داعية اجتماع

وليست فرحة الأوبات إلّا • لموقوف على ترح الوداع

وفي الإعراب عن النّافرعَن وطنِه وقومِه لطلبِ العلم بـ«الطائفة» إيماءً إلى أنَّ عليه أن يكونَ حالُه في طلبِه العلمَ حالَ الطائفِ حولَ الكعبةِ،

يَستَحضِرُ فيه شأنَ «الحاج» و«المعتمر» وكذلك في الطّواف معنى الهمة العالية ، والنّشاط في الذّهاب إلى مواطن العلم ومغارسه ، فلا يستصعِبَن طولَ مسافةٍ ولا مشقة سفرٍ.

•••••

الطلبة العظمى
من النفرة في طلب العلم

يُبين لنا - سُبْحانه وَبِحمْدِهِ – عما يجبُ أن يكون الطلبة من النفر في طلب العلم بقوله - سُبْحانَه وَتعَالى:« **لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ**»

جعل الطلبةمن أمرين : أمر يرجع إلى النافر، وأمر يرجع إلى من نغر عنهم ليطلب العلم.

الطلبة الولى« **لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ** » جاء البيان بالفعل« لِيَتَفَقَّهُوا » دون قةلنا :"ليفقهوا " اصطفاء الصيفة « يتفعلوا» يهديإلى وجوب الاجتهاد في فقه ،واستفراغ غايةالجهد فيه.

يقُول الطاهر ابن عاشور:«

وَالتَّفَقُّهُ: تَكَلُّفُ الْفَقَاهَةِ، وَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنْ فَقِهَ (بِكَسْرِ الْقَافِ) إِذَا فُهِمَ مَا يَدِقُّ فَهْمُهُ فَهُوَ فَاقِهٌ. فَالْفِقْهُ أَخَصُّ مِنَ الْعِلْمِ، وَلِذَلِكَ نَجِدُ فِي الْقُرْآنِ اسْتِعْمَالَ الْفِقْهِ فِيمَا يَخْفَى عِلْمُهُ كَقَوْلِهِ: «**لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**» [الْإِسْرَاء: ٤٤] ، وَيَجِيءُ مِنْهُ فَقُهَ- بِضَمِّ الْقَافِ- إِذَا صَارَ الْفِقْهُ سَجِيَّتَهُ، فَقَّاهَةٌ فَهُوَ فَقِيهٌ.

وَلَمَّا كَانَ مَصِيرُ الْفِقْهِ سَجِيَّةً لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِمُزَاوَلَةِ مَا يُبَلِّغُ إِلَى ذَلِكَ كَانَتْ صِيغَةُ التَّفَعُّلِ الْمُؤْذِنَةُ بِالتَّكَلُّفِ مُتَعَيِّنَةً لِأَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا تَكَلُّفُ حُصُولِ الْفِقْهِ، أَيِ الْفَهْمِ فِي الدِّينِ. وَفِي هَذَا إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ فَهْمَ الدِّينِ أَمْرٌ دَقِيقُ الْمَسْلَكِ لَا يَحْصُلُ بِسُهُولَةٍ، وَلِذَلِكَ جَاءَ

فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ «**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»

، وَلِذَلِكَ جَزَمَ الْعُلَمَاءُ بِأَنَّ الْفِقْهَ أَفْضَلُ الْعُلُومِ.

وَقَدْ ضَبَطَ الْعُلَمَاءُ حَقِيقَةَ الْفِقْهِ بِأَنَّهُ الْعِلْمُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ الْمُكْتَسَبِ مِنْ أَدِلَّتِهَا التَّفْصِيلِيَّةِ بِالِاجْتِهَادِ. » ([1])

وقوله تعالى:« فِي الدِّينِ » دون قولنا: "ليتفقهوا الدّين" إيماءً إِلَى أنَّ الأهمَّ إنّما هو أن يكونَ فقهُك الحياةَ في ضوءِ الدِّين: بيانِ الوحي قرآنًا وسُنَّةً .

ليس الأهمُّ أن تفقهَ ما قال الوحيُ دون أن ترَى الحياةَ في ضوءِ هذا الوحي، ودون ان تفقهَ هذا الوحي في ضوءِ حركةِ الحياةِ المتجددة .

الأهمُّ أن تربطَ بيْن فقهِك الوَحي وبصرِك بحركةِ الحياةِ المُتجدّدةِ في كُلِّ عصرٍ ومِصرٍ، هذا التّجدُّدُ يُوجِبُ عليك أن تُحسِنَ فقهَ الوَحي فقهًا يَصلُح لهذه الحياةِ المتجددة ،ويُصلحها ايضًا ، فإنّما الوَحيُ قرآنًا وسُنَّةً للنّاسِ جميعًا فِي كُلِّ عصرٍ ومِصرٍ، فلا تَنْقِلَنَّ ما صَلُح في القرون الأولى والأمصار المترامية وتنزله هو هو على عَصرك ومِصرك . لا بُدَّ من بعضٍ من الحِكمةِ وسياسةِ العلمِ،وذلك أساسُ التَّفقهِ فِي الدّينِ .

كثيرٌ أولئك الّذين يفقهون الدّينَ: بيانَ الوَحي قُرآنًا وسُنّةً ، إلَّا أنَّهم أبعدُما يكونُون عَن واقِعِ الحياةِ في عصرِهم .

نَعمْ هنالِك أحكامٌ مُحكَمَةٌ قَطعِيَّةٌ لا تتغيَّر بتغيّر الحياةِ وتغيّر الأعصار والأمصار، ولا سيّما أحكامُ العقيدة . هِيَ أحكامٌ قطعيّةٌ ،وما هُو مقطوعٌ بحلِّه وحرمتِه من تصرفاتالعباد في علاقتهم بالله وبالحياةِ كونًا وإنسَانًا ، وهنالك أحكامٌ لم تُسْتنبطْ مِن منطوقِ الوَحي ، بلْ مِن مفهومِه ،ومساحاتُ مفهومِ منطوقِ الوحيِ قُرآنًا وَسُنّةً جدّ وسيعةٍ وشَسيعَةٌ ، فهذه يحسنُ أن نُحسِنَ التَّبصُّرَ فيها، وفِي كيفيّاتِ تنزيلِها بِحسَبِ حركة الحياةِ المُتجدّدة، بما يُصلِحُ هذه الحياةِ ، فنُحقّق لها حُسنَ نزولِها على مقتضَى الشَّرعِ ، وحسنَ

[1]) تفسير« التحرير والتنوير» تليف :محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت : ١٣٩٣هـ) الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس ،سنة النشر: ١٩٨٤ هـ ، ج:١١ص: ٦١

يُسْرِ هذا النّزولِ والالتزامِ به ، فإنَّ الوَحي قرانًا وسُنّةً رحيبٌ يتسعُ لكلّ فنون الحياةِ القويمةِ .

يَقُولَ الإمَامُ الشّافعيُّ(ت: ٢٥٠-٢٠٤هـ) :

« فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليلُ على سبيل الهدى فيها.

قال الله تبارك وتعالى:

(كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) (إبراهيم ١)

وقال: **(وأنزلنا إليك الذكر لتبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون)** (النحل ٤٤)

وقال: **(ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمةً وبشرى للمسلمين)** (النحل ٨٩)

وقال: **(وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، ما كنتَ تدري ما الكتابُ، ولا الإيمانُ، ولكن جعلناه نوراً نَهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم)** (الشورى ٥٢)» ([١])

والتّفقهُ في الدّين اجتهادٌ يبدأُ ، ولا ينتهي ؛ لأنّه مرتبط بحركة الحياة ، وهي حركةٌ متجدّدة ، فأوجب هذا أن تكونَ حركةُ التّفقه في الدّين أيضًا مساوقة لحركة تجدّد الحياة، فليس العالم مَن يأتي بكلام سابقيه ؛ لينزلَه على قومه في عصره ومصره، أو يقوم باختيارٍ من آرائهم، وينزل مختاره على حياة عصره، أولئك السَّلف كتبوا لزمانهم، فعلينا ان نتعلّم منهاجهم في التّفكير والاستنباط والتّعبير وإنزال الأحكام على حركة الحياة القويمةِ ، لا أن ننقلَ كلامَهم وننزلَه على عصرِنا ، العالمُ يَتعلَّم مِن سابقِه مناهجَهم في

---

[١]) الرسالة. تأليف الإيمان الشافعي: أبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع المطلبي (١٥٠-: ٢٠٤هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر ،الناشر: مكتبه الحلبي، مصر ،الطبعة: الأولى، ١٣٥٨هـ .ص:٢٠

التّفكير والاستنباط وإنزال الأحكام ، ثم يعمدُ العالمُ بهذا الزّاد المنهجيّ إلى بيانِ الوحي: قرآنًا وسنّةً ، وإلى واقع الحياة ؛ ليستنبطَ منه ما لمْ يستنبطه سابقوه ؛ لأنّهم اتخذوا واقعَ حياتِهم عاملًا مِن عواملِ التّفقّهِ الكثيرة، فإذا تغيّر هذا العاملُ وجبَ أن يعمدَ العلماءُ إلى أن يسلكُوا سبيلَ السَّلفِ في إعمالِ أفئدتِهم في التّفكيرِ والاستنباطِ ، لا أن يُعمِلُوها في نقلِ كلام سابقيهم ، وإنزالِه على زمانهم .

كمْ يكونُ جليلًا جميلًا أن يسلُكَ الأعيانُ مِن علماءِ الأمّةِ إلى أن يجتهدوا كما اجتهد إسلافهم، وأن يمارسوا تفقّهَهم من خلالِ بيانِ الوحي ، ومقاصد الشّريعة وواقع الحياة القويمةِ المتجدّدة ، ثم يستنبطون بأنفسِهم لأمتِهم ما يُصلحها .

استغناءُ علماءِ عصرِنا بما استنبطَ أسلافُنا مِن أعيانِ أهلِ العلمِ في القرون الأولى هذا يعني واحدًا من أمرين أوْ هُما معًا:

(الأوّلُ) : أنّه لم يبقَ في بيان الوحيِ ما يستنبط ، فقد استفرغَ أعيانُ العلماءِ مِن الأجدادِ كلّ ما فيه.

وهذا لا يقولُه مأفونٌ فضلًا عَن أن يقولَه مَن يَنسُبُ نفسَه إلى أهلِ العلمِ. كيف، وهُم الّذين يُؤذّنون فيها عَن حِليةِ القُرآن أنّه « لاَ يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلاَ يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ » ؟ .

و**(الآخر)** : أنّهم عاجزون عَن أن يفعلوا ما فعلَ إسْلافُهم لِزمانِهم ، فإنْ كان هذا ، فعليهم أن يُعلِنوا ذلك، وأن يَتنحّوا عن منازلهم .

أليسُوا هُم الّذين علَّمونا – نحن طلابَ العلم - أنَّ الإمامَ الشافعيّ - رضِيَ الله عَنْهُ - له مذهبان:"القديم" في العراق،و"الجديد" في مصر ، وهُو الَّذِي لَم يتوطّنها سِوى خمسةِ أعوامِ(١٩٩-٢٠٤هـ) ؟

أيُمكِنُ أن يكونَ الّذِي فِي مذهبِه القديمِ مناقضًا ما فِي مذهبِه الجديدِ؟

أيُمكِنُ أن يكونَ الإمام الشافعي - رضِيَ الله عَنْهُ - قد حرّم شيئًا في القديمِ، ثُمَّ أحلّه في الجديدِ أو عكس ذلك ؟

أيمكنُ أن يكون؟

أليس الإمامُ الشّافعيّ - رضِيَ الله عَنْهُ - في القديمِ والجديدِ كان مُستمِدًا مِن بيانِ الوحيِ قرآنًا وسُنّةً ولَم يَتغيّر إلّا عاملُ حركةِ الحياةِ ، فلَيْست الّتي في العراقِ هي هي الّتي في مصر طباع العبادِ في البلدين ليست سواءً.

لا يعنِي هذا أنّ لَدَيْنا شرعان أوْ شَرائع متعدّدة بتعدّد الأعصارِ والأمصار لا يقُول هذا مَن فِيه ذرّةٌ مِن حياء .

هنالِك أحكامٌ كليَّةٌ محكَمَة لا تقبلُ التَّأويلَ أو النّسخ ، أو التعطيل أو التأجيل. هنا قراءةٌ إيمانِيّة لبيانِ الوحي في ضوءِ تجدَّد حركةِ الحياةِ وفقَ مقاصدِ الشَّريعةِ، وأصولِ الاستنباطِ وضوابطِه.

•••••

حقّ علَى جامعةِ الأزهر «فسطاطِ الخَيْر» وعلَى كلِّ جامعةٍ إسلاميّة تُعنَى ببيانِ الوحي عقيدةً وشريعةً وأخلاقًا أن تكون رسالتُها تعليمَ طلابِها مناهجَ التّفكير في كل علم وتدريبَهم المُحكم المحيط ، وليس تدريسَ الجزئياتِ والأراءِ لأَهلِ العلم بحيثُ يحفظُها الطالبُ ثمَّ يردّها إلى أستاذِه في ورقةِ الإجابةِ آخرَ العام .

هذا ليس تعليمًا ، هذا اجترارٌ أو سمّهِ ما شئْتَ إلّا أن يكونَ تعليمًا.

التّعليمُ في ما قبلَ التَّعليمِ الجامعيّ مهمّتُه الشّرحُ والتّبيينُ لمقالات العلماء السابقين،في قضيةٍ ومِسألةٍ ، وبيان مذاهبهم ،وأدلتهم .ايكون ذلك زاده ،وهو مرتحل إلى التعليم فيالمرحلةِ الجامعيّة.

أمَّا التَّعليمُ الجامعيّ، فمُهمَّتُه الرّئيسةُ هِي تعليمُ مناهجِ التّفكيرِ والاستنباطِ وتنزيلِ الأحكامِ علَى حركةِ الواقع، فتسحيلُ عقول طلاب الجامعة إلى عقول علميّة في تفكيرِها وفي ممارساتها في الحياةِ .

عقولٌ تُعنَى بقراءةِ مناهجِ تفكيرِ كلِّ عالمٍ في أسفارِهِ والوعي بما بيْن هذه المناهجِ مِن اختلافٍ واتفاقٍ، واجتماعٍ وافتراقٍ ، ومقتضيات ذلك كلِّه ، وأثر ذلك في إصلاح حركةِ الحياة ، وتجديدها .

كَم يكُون جليلًا جميلًا أن تكونَ علاقةُ الأعيانِ مِن علماءِ عصرنا بأسفارِ سلفهم علاقةً مُتبصّر في منهاجِ التّفكير والاستنباطِ والإنزالِ علَى حركةِ الحياة . وتبقى كتب الأعيان مأجداد العلماء لتعليم مناهجهم في التفكير والاستنابط والتّعبير لا أن تكونَ أصولًا ننزلُ عليها حركةَ حيَاةِ عصرِنا.

•••••

الطلبة الأخرى : ما يرجع نفعها إلى أقوام النّافرين إلى طلب العلم.

يأتي الإعرابُ عن الطلبة الأخرى في النفرةِ إلى طلبِ العلم بقوله تعالى:« **وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ**»

قوله تعالى:« **إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ**» معربًا بـ«إذا» الدَّالةِ علَى تيقُّن وقوعِ الشّرطِ دون «إنْ» الموضوعةِ لأصلِ الدّلالةِ على ارتباطِ الجَوابِ بالشّرطِ مِن غيرِ حُكمٍ على هذا الارتباطِ إيماءً إلى أنّ عليْهم ألّا يُفارِقوا أوطانَهم، ثُمَّ يَتوَطَّنونَ ما نَفروا إليه ، فَلَو أنّ كلَّ طالبِ علم نفرَ من قومِه ووطنِه يَطلبُ علمًا ثمَّ استوْطنَ ما نفرَ إليه ، لَما بَقي طالبُ علمٍ في البلدانِ المَنفورِ منها ، ولزادَها هذا خرابًا. إلّا إذا رأى يقينًا أن توطّنه ما نفرَ إليه طالبٌ ما فيه من علمٍ إنّما هو أعظمُ خدمةً لوطنه ل لو خاصّة ، فإنّه يكون الاستيطانُ حينداك غايةَ نبيلةً .

قولُه « **لِيُنذِروا قَوْمَهُم**» يرادُ تَبيين ما يلحقُهم مِن الضّرِّ فِي مسيرِهم ومصيرهم إذا ما بقوا عليه مِن الباطلِ والشّر.

وكان مقتضَى الظّاهر أنّ يقال: لِيبشّروا قومَهم ولِينذروهم أوْ ليفقّهوا قومَهم أوْ ليعلّموا قومهم ما تعلّموا.ولكنَّ البيانَ جاء على ما ترَى.

اصطفَى الإعرابَ بالإنذارِ ؛ لأنّ الغالبَ أنَّ القومَ المنفورَ مِنه إنّما هُم على غيرِ علمٍ ، وإلّا ما كانت النَّفرة عنهم ، وهذا يغلبُ أن يكونَ الغالبُ

علَى أمرِهم في حياتِهم على غيرِ ما يُسترضَى، فكان الأوْلَى تقديمُ التخليةِ ، والتَّطهيرُ والتَّزكيةُ ممَّا لا يُسترضَى .

ليس حكيمًا أنْ تبدَأ بِتبشيرِ مَن هُو مقيمٌ على باطلٍ أوْ شرٍّ .

الحكمةُ أن تُشعِرَه أوّلا بخطرِ ما هُو عليْه ؛ ليكونَ ذلِك عونًا لَك على أن ينصرِفَ إلى ما يصلح معه التّبشير.

« **بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ • قُمْ فَأَنْذِرْ**» (المدّثر ١، ٢)

وكان الاكتفاءُ بالتَّصريحِ بالإنذارِ لِما يَتضمّنه مِن التَّبشيرِ إذا ما أقلعوا عمَّا أُنذورا بسببِه، فيكونُ إدراكُهم لما يُبشَّرون بِه تلويحًا بَعد ما أدرَكُوا ما أُنذِروا به تصريحًا، فكان فيهم التَّصريحُ ناجعًا، فانصرَفوا عمَّا أُنذِروا بسببِه، وهُم إذا ما كان مِنهم ذلك لمْ يكونوا بحاجةٍ إلى أن يُصرَّحَ لَهم بما يَبشَّرون به حين يَنْتَقِلونَ إلَى ما هو مقابلٌ ما كانوا فيه من الباطلِ والشّرّ، فقد غَدوا أهلًا لأن يُخاطبوا تلويحًا.

وأنت تجدُ في البيان القرآنيّ عُظمَ المَعانِي الإحسانيّة الّتي يُخاطبُ بها مَن تجاوزَ مقام «الّذين آمنوا» الّذي هو مفتتحُ مقاماتِ القربِ الأقدس من ربّ العالمين إلى ما فوقَه : مقام «المؤمنين» وما فوقه إنّما الإعرابُ عنه تلويحًا.

والقيامة بفريضة« الإنذار» يحتاج إلى مزيدٍ من «الحكمة» ،ولاسيّما انذار منْ كانوا في الضّلالةِ ماكثون دهورًا.

الأوطان التي تشيعُ فيها البدع عقيدةً وشريعة يحاتج إنذار قومها إلىأنتكون حكمة المنذر عديل علمه أو أكبر كيما لا يفسد أكثر مما يصلح .وهذا يحتاج إلىدربةٍ وإلى صبرٍ جميلٍ ،واحتسابٍ كميل.

•••••

تبيّن لكَ أنَّ قوله تَعالَى :« **لِيتفقّهوا فِي الدينِ** » مغزَى النّفرة إلى طلبِ العلم النفيعِ المخرجِ مِن الظُّلماتِ إلى النُّورِ، وأنَّ قولَه تعالَى :« لِنذروا قومهم إذا رَجعُو إلِيْهم» مغزًى من مغازي التّفقهِ فِي الدّين . ممّا يهدِيك إلى

أنَّ طالبَ العلمِ النفيعِ لا يَطلبُه لنفسِه دون قومِه، بل من صلة رحمه، والإحسان إلى أهلِه وقومِه ووطنِه أن يكونَ لهم مِن عطاءاتِ الله - تَعَالَى جَدُّهُ - الموفقهِ إلى أن يتفقه في الدين التي بذلها له أن يُنذرَهم ممَّا يتوقَّعُ إلحاقُ الضُّرِّ بهِم في مسيرِهم ومصيرِهم .حاضِرِهم ومستقبَلهم. فيكون عاملًا من عوامل تحقيق الأمن المحيط بكل أبعاده وأنواعه وفي طليعة ذلك الأمن المقيم مِن غضبِ الله - تَعَالَى جَدُّهُ – عليهم في الدَّاريْن.

وقوله - جَلّ جَلالُه- جلالُه «**لعلهم يحذرون** » مبينٌ عن مغزى إنذارِهم ، والحذر اتخاذ العدة الدافعة عنهم ما يتوقعون وقوعه بهم من الضرّ.

والحذر يقتضي أمورًا جسامًا منها العلم بمخاطر ما يجبُ الحذر منه علماًا ميقنا، فإذا لم يكن ذلك العلم لم يكن ثَم حذرٌ ،وأو يكون على عير ما يجبُ أن يكونَ .

ومنها التيقظ والاستعداد لدفع ما يُحذر وانمتلاك ما يقع به الدفع ، والعلم بكيفية إعمالِه على الوجه القويم .

والله - تَعَالَى جَدُّهُ – يقول:« **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ**»(النساء:٧١)

والفعل «خذوا» فيه دلالةٌ على وجوبِ القُوّةِ فِي إيقاعِ الفعلِ ،ولِذا لم يقلْ : "احْذَرُوا" فإنّ الأمرّ يتحقّقُ بأدنَى صورِ الحذَر كماأنه قد يفهم منه عدم الفورية عند من يذهب إلى أن صيغة «الأمر» لا تقتضي الفورة، ولا تقتضِي التكرار على ما عليه جمعٌ من علماءِ أصولِ الفقهِ ([1])

---

[1]) أصول الفقه تليف الإمام شكمس الأئمة أبي بكرالسرخسي : محمد بن أحمد بن أبي سهل (ت: ٤٨٣هـ)
الناشر: دار المعرفة - بيروت .ج:١ص ٢٠
الإبهاج في شرح منهاج الوصول إلي علم الأصول للقاضي البيضاوي (ت: ٧٨٥هـ) نأليف: التقي السبكي،وولده التاج السبكي. ،الناشر: دار الكتب العلمية -بيروت عام النشر: ١٤١٦هـ .ج: ٢ص: ٤٨، ص٥٨
البحر المحيط في أصول الفقه للبدر الزركشي(ت: ٧٩٤هـ) .نشر :دار الكتبي .ط:(١) عام ١٤١٤هـ ج: ٣ص٣١١

أمّا «خذوا» فلا يتحقق إلا إذا ما كان بقوة مؤسّسة على علم صَحيحٍ ، وصحبة ديمومة .

والبيان القرآني لم يصرح بِما يحذرونَه ، إيماءً إلى أحاطة الحذر كلّ ما يكون الحذر منه واجبًا في منطقِ العقلِ الفطريّ، فكلُّ ما يلحقُ بك ضررًا يجبُ على العاقلِ أن يحذرَ منه ، وأن يتخذ الأسبابَ ٱلّتِي مِن شأنِها أن يكونَ الحذرُ عن وقوعِها. فأهل الحكمة على أن المؤمن كيسٌ فطنٌ .([1])

وفي الإعراب بقولِه:« لعلهم» دون أن يجعل الحذر مترتبًا صراحةً على الإنذار فيقال في غيرِ القرآن: لينذروا قومهم فيحذرون. فوائد منها:

= أنّ الحذرَ ليس بلازمٍ وقوعه من الإنذار، وبذلك لا يوجب طلابُ العلم النافرون عن أوطانهم لطلبه، والرّاجعون إلى أقوامهم يندرونهم وقوعَ الحذر .

إنْ عليهم إلّا الإخلاص في الإنذار بالحكمة والموعظة الحسنة ، واتقان هذا الفعلِ ، والرّجاء من الله تعالَى أن يكونَ له في قومهم أثرٌ حميدٌ ، ولا عليهم بعدُ إنْ وقع الحَذرُ مِن قومِهم أوْ لم يقعْ .

عليهم أن يكونوا على رجاءٍ تحقّق ذلك من قومهم انطلاقًا من محبة المؤمن لأخيه الخير كمما يُحبُّ لنفسِه .

المؤمنُ يؤدّي ما علَيْهِ راجيًا ومتشوّقًا أن يكون أخوه أيضًا مستجيبًا مؤديا ما عليه.

هُو لا يفعلُ الخير إبراء للذمّة، وأداء لواجب ، بل هو يفعل لذلِك وليتحقق لغيره أيضًا الخير.

الأمرُ الآخر: تطهير أفئدة المنذرين من أن يتوهموا أنّ إنذارهم محققٌ حذَر من ينذرونهم، وأنّ لهم في ذلك أثرٌ وفضلٌ.

---

[1]) ينسبه بعض الوعاظِ والناشئة في طلب العلم إلى سيدنا رسول الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّمَ -، وما هو من قوله، بل هو حكمةٌ فهو صحيح المعنى باطلٌ رفعه إلى المقام الشريفِ فاحذر نسبته إلى مقامِ النبوة.

عليهم أن يعلموا أنّهم يجتهدون محتشدين في إتقان اتخاذ الأسباب واليقين أنّها ليست هي الموجدة للمسببات ، وإلّأ ما تخلّف مسببٌ عن سببِه، ولا هي موجِدٌ بها المسببات ، بل تكونُ المسبَّباتُ عند وجودِ السببِ، والله - تَعَالَى جَدُّهُ – لَم يقرن وقوع المسبَّياتِ غالبًا عند وقوع الأسبابِ إلّا ليجعلَ للعبدِ ما يحفِزُه إلى اتخاذِ الأسبابِ غير معتمد عليها ؛ ليكونَ له ما يُهيئة لأن يُجازَى بالحسنى على اتخاذه الأسباب.

الله - تَعَالَى جَدُّهُ – ليس بحاجة إلى الأسباب. « **بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** »(البقرة: ١١٧) ([1])

ليس تكليفُه العباد لتخاذ الأسباب إلّا ليجعلهم اهلًا لأن يُكرّمُوا بالمثوبةِ ، فاحْمَد الله - تَعَالَى جَدُّهُ - أن كلفكَ باتخاذ الأسبابِ على قدر طوقِك .

والعبدُ مفطورٌ على أنّه إذا ما كُلّف بأمر لا يعودُ نفعُه على المكلِّفه،وإنما يعود نفعه إليه فإنّه –إن فقه – أسرع استجابةً ،أتقن فعلًا .

وفي اختصاص «الحذر» بالتصريح من غاية الإنذار انه هو الأليقبه، فالعلاقةُ بين« السبب :الإنذار »و«المسبب: الحذر» جلية لا تخفَى. فهنالك مراعاة نظيرٍ محققة لمزيد من التناسبِ والتماسك النّظمي. وإذا استحضرت أن في النفر إلى طلب العلم حذرًا من « الجهل» وما يحققه من أضرارٍ جسام ، تبيَّنت لك العلاقة بين قوله تَعالى: « لَعَلَّهُمْ يَحذَرُونَ» وقوله تَعالى:« فَلَوْلَا نَفَرَ ... » فيكونُ هذا مِن قبيلِ ردَّ الأعجازِ علَى الصّدورِ ، وهو أيضًا مسلكٌ مِن مسالِك تماسُك النّظمِ وتناسبِ المعانِي .

•••••

[1]) صرّف الله - سبْحانَه تَعَالَى – البيانَ عن هذا المعنى :« إنّما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون » في تسع مواضع من القرآن ليمكنه في فؤاد عباده تمكنًا يحقق لهم اليقين بأنّه - سبْحانَه تَعَالَى – ليس بحاجةٍ إلى الأسبابِ . وإلي أن يكون له معينٌ .
وقد ختم - سُبْحانَهُ وبحمْدِه - سورة الإسراء بقوله عَزَّ وَجَلَّ:«وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا » (الإسراء: ١١١) وهو دالٌ على جليل عزته. « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا»(فاطر:١٠) وقد ورد اسمه العزيز ستا وستين مرة في الذّكر الحكيم.

جُمُعَةُ القَولِ

فِي سُورةِ « التَّوبةِ» وهِي مِن أواخِرِ السُّورِ نُزولًا جاءَ الحّثّ الرَّبانيّ علَى النّفيرِ فِي سبيلِ الله تَعالى بشرِيجَيْهِ المُتكامِلَيْن : يُرفِدُ كلّ الأخرَ:

(الشّريجُ الأوّلُ) : شريجُ النّفيرِ إلى الجهادِ فِي سبيلِ الله تَعالَى بالأنفسِ والأموالِ قتالًا للّذين يصدّونَ عَن سبيلِ اللهِ - سبْحانَه تَعالَى - من الكافرينِ والمُشركين والمُنافقين الّذين لم يكتفُوا بكفرِهِم وإشراكِهم ونفاقِهم لمَّا عُرضَ عليهم الحقُّ والخيرُ ورضُوا بالحياةِ الدُنيا واطمأنوا بها ، فَجاوزا ذلك إلى صدِّ الآخرين عَن أن يَسمَعوا كلمةَ الحقّ والخير، وعنْ ان يتخذوا لأنفسِهم بأنفسِهم طوعًا ما يرضونَه لها .

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨)» (فصّلت) فكان حقًّا للّذين مُنعوا من أن يَسعمَوا كلمةَ الحقّ والخيرِ،وصُدّوا عن ذلك أن يُدافَع عنهم ، بقتالِ أولئك الذينَ اعتدَوا على حقّهم . الّذين يُريدون حِرمانَهم ممّا كان لهم مِن الاستماع واتخاذِ القرارِ الّذي يُريدون إمّا إعراضًا وإما قبولًا .

•••••

هذا النّفير ليس إكراهًا لأحدٍ قطٌّ على أن يدخلَ في الإسلام ، فذلك لا ينفعُ الإسلامَ في شيْءٍ ، بل يُلحِقُ به وبأتباعِه ضُرًا لا يُطاق : ضرّ النِّفاق وكيدِه ، وهو أَشدُّ من ضُرّ الكفرِ الصّريح .

وفوقَ هذا لا يَنفعُ من أُكرِه على الدُّخول في الإسلامِ .

والإكراه على الدّخولِ فيه مُناقضُ لرسالةِ الإسلامِ : إِخراجِ النَّاسِ مِن الظلماتِ إلى النُّور .

الإكراهُ يُخرِجُ المُكرَه مِن ظلمةِ «الكُفر» الصَّريح إلى ظُلماتِ «النِّفاق» :

« إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا »(النسـاء:١٤٥)

لَوْ لَمْ يكُن صَدٌّ عن سبيلِ الحقّ والخير ، واعتداءٌ على أهلهما ما كان في الإسلام قتالٌ لأحد. ولمضت الدَّعوةُ إلى الحقّ والخيرِ في سبيلِ الدّعوة بالحكمةِ والموعظةِ الحَسنةِ، فإن لم يُجْدِيا كان الجدالُ بالَّتي هي أحسنُ لِمن رغبَ فيه . وما كان للسّيفِ أن يخرجَ من غمده.

إنّما الجهادُ بالأنفسِ والأموالِ في سبيلِ الله تعَالى للصَّادين غيرَهم عَن الإصغاء إليهِ الباعثُ عليه هو موقفُ الكافرين والمُشركين والمنافقين من حرمان غيرهم أن يَسمَعوا ، وأن يفكِّروا ، وأن يتخذوا قرارَهم بأنفسِهم لأنفسِهم، هو جهادٌ لتحقيقِ حقِّ الأخرين في أن يَسمَعوا الحقَّ والخيرَ ، وأن يُمارسُوا حريَّتهم واختيارَهم ، لا أن يكرهوا عَلى أن يَقبَعوا فِي ما هم فيه. فمَن الّذي يُكرِه الإخرين إذَنْ: الإسلامُ أمْ الكافرون والمشركّون والمنافقون ؟

فهل يليقُ بأن يُترَك المَظلومُ المَمنوعُ مِن أن يستمعُ ، ويفكّر ويختار؟ لا يكون.

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)» (البقرة)

و(**الشّريجُ الآخر**) شريجُ النّفيرِ إلى الجِهادِ في سبيلِ الله - تَعَالَى جَدُّهُ – طلبًا للعلم النّفيعِ المخرجِ للنّاس من الظّلماتِ إلى النُّور .

« وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » (التوبة :١٢٢)

شريجان مُتعادلان ، لا يُغنِي أحدُهما عن الآخر.

الأوّل يحقّق للآخرِ الأمنَ الفكريّ في طلبِ العلم وخدمته

والآخرُ : يُحقّقُ للأوّل قدرتَه عَلى بلوغ الغاية ، ويُحقّق له صوابَ القصدِ، وإتقانَ الصّنعِ وفتوةَ العزم ، فجهادُ العليمِ ببيانِ الوَحْي قُرآنا وسنة بنفسِه وماله أنفعُ ،وأمجدُ ، وأحمدُ من جهادِ مَن لَم يكنْ كذلِك، فكلّ عملٍ أسّسَ على علمٍ صحيحٍ صَريحٍ هو الأنفعُ والأرفعُ .

لذا ترَى القرآن يعبّر عن كلٍّ بالنّفيرِ : عن الجهاد في سبيل الله تعَالى بالأنفسِ والأموالِ ، والجهاد بالعلم النفيع ، فإنّه لا يحمِى الأمّة إلّا رجلان : رجلٌ يحملُ سيفَه ، ورجل يحملُ قلمه.

السيفُ والقلم معًا هما درع حمايةِ الحياة الكريم، فمَن أنفق على أحدِهما دون ما ينفقُ على الأخر لم يكن على بصيرةٍ ، فإنّ الوهن في إعداد أحدِهما مضرٌ بالأخر أيّما ضررٍ .

وهذه الإمّة لن تغلبَ من جهة سَيفها بقدر ما تغلب من جهة قلمِها.

وهذا ما قرَّره سيدنا رسول الله - صَلّى اللهُ عَليْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّمَ – جين جمع بين وجوبِ الجهاد بالأنفسِ والأموالِ والألسنةِ . وهذه الثلاثةُ متداخلة على ما لا يخفَى عليْك ؟

روَى أبو داود في كتاب «الجهاد» من سُننه بسنده عَنْ سيّدِنا أَنَسِ بن مالكِ - رضِيَ الله عَنه - أَنَّ النَّبِىَّ - صَلّى اللهُ عَليْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّمَ - قَالَ :

« جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ ».

(صَححه أهل العلم) ورواه "النسائي" في سننه وأحمدُ في مسنده، وابن حبان في صَحيحه والدّارميّ في مسنده .والحاكمُ في "المستدرك" .

والجهاد بالألسنةِ إنّما هو جهادٌ بالعلم ، عبّر عَنه بالأداة الّتي لا يكونُ تبيينه وتلبيغه إلا بها إيماءً إلى أن يُعنى العالمُ بلسانِه ، كما يُعنى المقاتلُ بسيفِه، والعنايةُ باللّسان إنّما هو مترتبٌ على العناية بالفؤادِ تفكيرًا وتبصّرًا المنتج للعلمِ والصّانعهِ

العلم النفيع الذي يُجاهدُ به المشركون لا يمكنُ أن يكونَ مِن فؤلدٍ لا يتجاوزُ فعلُه حملَ المعرفة المبذولة من الآخرين واعتقالِها فيه ، ثم إيصالها إلى الآخرين. كلّا .

إنّما هو الفؤادُ الّذي يعقلُ العلم ثم يسقِيه من ماءِ تفكيرِه وتبصُّره، ويعملُ فيه التَّفكيرَ والبصرَ بمكوناتِه، وإعادةَ علاقاتِ جزئياته ببعضِها على نحو متجدّدٍ ،ثم قدح بعضِه ببعضٍ ؛ ليتولَّدَ منها ما لم يكن، فيكون بذلك متجاوزًا حالِ الحملِ لمقالات الآخرين إلى خدمة العلم وصناعتِه ، وبهذين يتحقق لعلم النفيع حياتُه .

وإذا ما كان من التقصيرِ الّذي يكادُ يبلغُ حدَّ الخيانةِ التّقصيرُ في تدريبِ المقاتلين ، ومدّهم بما يُحقق لهم مهارتهم ، واقتدارهم ، فالأمرُ كذلك التّقصير في إعداد طلابِ العلمِ النفيع ، وتدريبِهم ، ومحاجزتهم عن أن يكتفوا بحمل المعرفةِ الّتي أنتجها غيرهم ، واعتقالها في أفئدتهم ثُمّ اجترارها إذا ما طُلِبَتْ منهم .

الاكتفاءِ في إعداد طلابِ العلمِ بهذا خيانةٌ هي عديلُ التَّقصير في إعداد المقاتلين .

والضَنّ على إعداد طلابِ العلم بما يحقّق لهم خدمةَ العلمِ وصناعته، وتميزه، وإنتاجه ما ليس بموجودٍ ممّا هو موجود - الضّنّ عليهم هُو عديلُ الضَّنّ على إعدادِ المقاتلين.

الضّنُّ على أيّ منهما بما يهيّؤه لأن يكونَ مقتدرًا على أداءِ رسالتِه إنّما هو ضربٌ من الخيانَة الّتي لا يُسكتُ عليها ؛ لأنَّ ضررُّها بالغٌ على الأمّةِ جمعاء.

•••••

أليس مِن كمالِ الحكمةِ أن يضعَ الذِّكرُ الحكيمُ في سورة «التوبة» الآيَةَ الحاثَّة على النَّفرة في طلبِ العلم عقيبَ الآياتِ الحاثّة علَى النّفرة إلى الجهادِ بالأنفسِ والأموالِ في سبيلِ الله - سبْحانَه تَعَالَى .

يجعلُ آية الحثِّ على النّفرةِ في طلب العلم ختامَ القِسم الرّئيس مِن السُّورةِ ، لتأتِي من بعدها الأياتُ الخاتمةُ للسّورة.

وكأنَّ في هذا إشارةً إلى أنّ الجهادَ بالعلمِ سيكونُ أوْلَى ، وأعلَى وأن تكونَ الأمّة أحوجَ إليه ، وهذا ما أنتَ تراه رأيَ عينٍ فِي زمانِك.

لَم يكُن لأحدٍ أن يَسلُبنا عزَّنا وكرماتَنا ، وريادتنا إلّا بتفوقه علينا علميًا ، وافتقارنا إلى ما في يدِه مِن التّقدم العلميّ الّذي نحن أحقّ بأن نكونَ صانعيه ، ومالكيه ، كما كنا قبلُ .

إذا ما كان جُندُنا في ما يُعرفُ بـ« القواتِ المُسلّحة» يقُومون بواجبِهم على نحْوٍ لا يُنكر ، فإنّ العلماءَ في مراكز البحث العلميّ وأستاذة الجامِعات يحمِلون في رقابهم مسؤوليّة التّخلّفِ العلميّ ، وفقدانِ الرِّيادةِ العِلميّة ، وتعريضِ الأمّة لأن تكونَ في عوَزٍ لِما في أيدِي غيرِها من العلوم. ولذا فإنّه لَيجبُ على العلماءِ في مراكز البحثِ العلميّ وأستاذةِ الجامِعات أن يستيقظوا ممّا هم فيه من تقليد واجترارٍ لما يقولُ الآخرون .

جُـمُعَةُ

حِليةِ طالبِ العلم

ببيانِ الوَحْيِ ومَكنزُها

لطالبِ العلم النفيع المخرجِ من الظلماتِ إلى النور حلى عديدة تجمعها حليةٌ هي عندي مكنزها وجُمُعتها ، يحسن ذكرها ، ثمَّ تفصيل بعضِ ما هو مكتنزٌ فيها.

وهذا النّهجً: الإجمالُ ثم التفصِيلُ إنّما هو نهج بيان الوحي قرآنا وسنة:

أجملّ القرآن في سورة «أم الكتاب » ما فصّله في السور التي توالت بعدها على نسق بديعٍ معجزٍ يتصاعد بمن يُحسن البصر بحركةِ المعنى فيها إلى ذروة المعنى القرآني :« سورة الإخلاص» فإذا ما قام في فؤاده نور قوله - تَعَالَى جَدُّهُ - « **وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**)(الإخلاص :٤) وهو تصريفٌ بياني لوله - تَعالَى جَدُّهُ -« **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**» (أم الكتاب: ٥) يأتيه التّحصين الإلهّي مِن أن يهبطَ من هذه الذروة بالمعوذتين. «**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**»(الحج:٣٨)

«**بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيم الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** »(١هود:)

جمعة هذه الْحلَى هو «علو الهمة »

سأل مريدٌ ساعٍ إلى مرضَاة ربّه - سُبْحانَهُ وبِحمْدِه - شيخه العارف بالطريقِ إلى الله تعالَى : شيخنا ، حدثّنا عمّا يكونُ لأهلِ الجنّة مِن النَّعيمِ فِيها.

وسكت الشّيخُ ، ثمَّ رفعَ راسَه قائلًا :" فِيها رَسولُ الله - صَلّى اللهُ عَليْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّمَ – " وسكتَ.

جواب بالغ الحكمةِ والوجازة سلك به ما يعرفُ عند البلاغيين بـ«الأسلوب الحكيم»

ذهبَ الشّيخُ النّطاسيُّ بالمريد المتشوفِ إلى ما يليقُ به : إلى «عُلُوّ الهِمّة» . أنبأه في رفقٍ أنَّ المريدَ مرضاةِ ربّه تعالَى : طالبَ العلم النفيعِ المخرجه من الظلماتِ إلَى النّور الطوّاف به حولَ حِمَى الوِراثَةِ النّبويّة - لا يليقُ به أن يُشغلَ بما يُشغلُ به سوادُ النّاسِ من مأكلٍ شَهيّ ومَشربٍ هَنيّ ومَلبسٍ نَعيمٍ ومسكنٍ فخيمٍ .

من وراء ذلك ما هو أجلّ : من وراءِ ذلك صُحبة سيّدنا رسول الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّمَ – ألم يقل الله - تَعَالَى جَدُّهُ -:« **وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا** (٧٠)»(النساء)([١])

هذه المعيّة :« **مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ**» هي مطمح النبلاء ومتشوفهم ، ومن فوق ذلك رؤيةربنا - سبْحانَه تَعَالَى – في الجنةِ: «**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)**»(القيامة» وتلك هي اسمَى ما تَعلو إليه هِمَم النّبلاء ،وطالب العلم النفيع المخرجِ من الظلماتِ إلَى النّور حقّ علَيْهِ أن يكونَ منهم ،وفيهم. ليس بعد نعمكة رؤية ربنا - سُبْحانَهُ وبِحمْدِه - نعمة. كل نعيم الجنة المحسوس هو من دون نعيم صحبةِ سيّدنا رسولِ الله - صَلّى اللهُ عَليْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّمَ – ورؤية ربنا - جَلّ جَلالُه- .

فإاذ ما كنا قد حرمنا صحبته - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّمَ – في حياتِه، فإن ربنا عَزَّ وعلا قد أتلاح لناأن نصحب هديه وسنته من من بعد،وان نسعى إلى صُحبته في الآخرة في الفردوسِ الأعلى.

[١]) قوله - سبْحانه وتَعَالَى - :« مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ... » يستحضرُ فيفؤادك قوله - تَعَالَى جَدُّهُ – في «أم الكتاب»:« اه **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ • صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» (أم الكتاب: ٦ ،٧)**

كذلك يبعثُ الشيخُ العارف بالطريق إلى ربّه تعالى «المريدَ» إلى أن يكونَ عالي الهمة.

طني الوثيق أنّ الشّيخَ في جوابه عَن سؤال «المريد» قد استحضر ما قاله سيّدنا رسولُالله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّمَ – للأنصار حين لم يُعط أحدًا منهم ممماافاء الله عليه من أموال«هوازن».

روى الإمامُ أحمد في مسندِه بسنده عَنِ الزُّهْرِىِّ قَالَ أَخْبَرَنِى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ - رضِيَ الله عَنه - أَنَّ نَاساً مِنَ الأَنْصَارِ - رضِيَ الله عَنهم - قَالُوا يَوْمَ حُنَيْنٍ حِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ أَمْوَالَ هَوَازِنَ فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يُعْطِى رِجَالاً مِنْ قُرَيْشٍ الْمِائَةَ مِنَ الإِبِلِ كُلَّ رَجُلٍ ، فَقَالُوا: "يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يُعْطِى قُرَيْشاً وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ. " قَالَ أَنَسٌ : فَحُدِّثَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- بِمَقَالَتِهِمْ ، فَأَرْسَلَ إِلَى الأَنْصَارِ ، فَجَمَعَهُمْ فِى قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ وَلَمْ يَدْعُ مَعَهُمْ أَحَداً غَيْرَهُمْ ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ : « **مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِى عَنْكُمْ ؟**». فَقَالَتِ الأَنْصَارُ : أَمَّا ذَوُو رَأْيِنَا ، فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئاً ، وَأَمَّا نَاسٌ حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ ، فَقَالُوا : كَذَا وَكَذَا لِلَّذِى قَالُوا. فَقَالَ النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم- :

« إِنِّى لأُعْطِى رِجَالاً حُدَثَاءَ عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ - أَوْ قَالَ أَسْتَأْلِفُهُمْ - **أَفَلاَ تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالأَمْوَالِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللهِ إِلَى رِحَالِكُمْ فَوَاللَّهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ** ».

قَالُوا : أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ رَضِينَا. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: « **إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ بَعْدِى أَثَرَةً شَدِيدَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوُا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنِّى فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ** ». قَالَ أَنَسٌ فَلَمْ نَصْبِرْ."

ورواه وجيزًا الشيخان: البخاري في" مناقب الأنصار" و"المغازي" ومسلم في كتابِ" الزكاة"([1])

[1]) آثرت إيراد الجديث من مسند أحمد - رضِيَ الله عَنه – لما فيه من تفصيلٍ نفيعٍ .

قوله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّمَ – للأنصار - رضِيَ الله عَنهم - :« أَفَلاَ تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالأَمْوَالِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رِحَالِكُمْ» درسٌ عظيمٌ في التّحلّي بعلوّ الهمّة ، وأحقُّ النَّاس بهذه الحلية الجمعاء هُو طالبُ العلم بكتابِ الله - تَعَالَى جَدُّهُ – وسُنّة رسوله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّمَ – المخرجِ مِن الظُّلماتِ كلِّ الظُلماتِ إِلَى النُّور الّذِي لا يَخبو أبدًا. ذلك أنَّه لا يطلبُ علمًا ، كالّذِي يطلبُ غيرٌه . إنّما هُو يطلبُ أن يكونَ وراثًا رسُولَ الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّمَ – في رسالتِه ، وحَقٌّ علَى الوارثِ أن يكونَ على سَمْتِ وهدْيِ مورّثِه فِي جميعِ أمرِه في أقوالِه وأفعالِه وأحوالِه ظاهرِها وباطنِها ما استطاعَ إلى ذلك سبيلًا ، لا يدعُ في قَوسِهِ منزعًا.

هذه الحلية « علو الهِمّة» إذا ما تحققت تحققًا مكينًا في فؤاد طالبِ العلم استحالَ لَهُ بإذن الله – تَعَالَى- وعونه كلُّ عصيّ مطيعًا، واستحالَ له كلُّ عسير يسيرًا ،و استحالَ له كل بعيدٍ قريبًا ، و استحالَ له كل خفيّ جليّا...

وهذا يوجبُ على طالبِ العلم أن يكون بصيرًا بحقيقة هذه الحلية :« عُلو الهمّة» واستحقاقاتها ،وسبيل تحقيقها .

وأهل العلم كانت لهم جهودٌ في بيانِ ذلك إجمالًا وتفصيلا ، فحَسنٌ أن يعمد طالبُ العلم إلى ما كتبوا ، لفقه ما فيها، وليَتفقه منهجَ كلّ في بيان تلك الحليةِ ، ومدخله إلى تبيينها، واستمداته ما قال ، ومغازيه ممّا يقول .

كلُّ ذلك حرًى به أن يكونَ في عزمة الإحاطة به واسْتطعامِه، اي أحالتهاإلى زاد فؤاده الرّشيد.

لا تجعلَنَّ همّك أن تحفظ ما قالوا : أن تعقله، إنّك إن فعلت كنت مناقضًا ما أنت تقرأ، كأنّك تتقرأُ لتحالف ما تقرأ .

علوُّ الهمة يبدأ تطبيقه من أول ما تقرأ ما كُتب في علو الهمّة : تتصاعدُ من مرحلة اعتقالِ ما تقرأ في فؤادك الرّشيد إلى ما فوق ذلك ممّا ذكرته لك قبلُ .

وأول علو الهمةِ أن يكون قصدُك ومغزاك من كلّ ما أنت قائمٌ لَه، وبه من قولٍ أو فعلٍ أو حالٍ ظاهرٍ أو باطنٍ لله ربّ العالمين وحده.

لا تلتفتُ إلى غيرِه ،ولا يشغلنك ما سيقول العالمون، وما سيكون منهم.

اجعل همك ربّك - سبْحانَه تَعَالَى . ولاسيما طلبك العلم النّفيع، لأن هذا المطلوب حقه عليك الذي لا يُمكنُ أن يُتسامحَ فيه أو يترخص أن يكون لربك - سبْحانَه تَعالَى .

روى الترمذي في كتاب« العلم» من جامعه بسندِه عَن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ - رضِيَ الله عَنه - قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –- صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّمَ - يَقُولُ :

« **مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِىَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِىَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ** ». ورواه ابن ماجه في مقدمة سننه بسنده عن ابن عمر - رضِيَ الله عَنهما – والدامرمي في مقدمة السنن بسنده عن عبد الله بن مسعود - رضِيَ الله عَنه .

والشيطان سيسعى جهيدًا إلى أن يصرفك عن علو الهمةِ في هذا ، فإذا تمكنك منك ، تركك تطلب العلم كما تشاءِ لا يشغلك عنه ، لأنه قد أفسد عليك كلّ عملك ، فصرت تعمل في ما هو ردٌّ .

سياسةُ الشيطان أنّه يضربُ خصمَه في مقتلٍ، فمن رآه مجتهدًا في طاعةٍ لا يصرِفه عنها شيْءٌ من الدنيا ، وحاول هو أن يصرفه أو يقيمَ الكُدى في طريقه فلم يفلح، حرَصَ على أن يفسِد عليه قصده ونيته، فيسلّط عليه من حوله يغرقونه بالثناءِ عليه في وجهه، فيدخله العجبُ أوّلا ثم تتسلل إليه الرغبةُ في ثناءِ الناسِ عليه، فيلاحظهم في مبعثه إلى العمل،وفي أثنائه ،في إتمامه فيفسد عليه أمره كلّه. فكان حقًا على من

حوله ألا يثنون عليه في وجهه، بل عليهم أن يبتهلوا إلىالله - تَعَالَى جَدُّهُ – بظهر الغيب أن يعصمه من كيد الشيطانوجنهد،وأن يفتح لهأبواب القربِ منه - سبْحانَه تَعَالَى – فذلك أنفع له من الثناء عليْهِ في وجههِ ، فمن بالغ في الثناء عليك ، فإنه يقتله مع سبق العمد غصرارًا وترصدًا . وليس قطع صلة المرء بالإخلاصِ بأقل جريرة وجرما من قطع رقبتِه. هما في المهلكةِ سَواء.

•••••

من استصغر كل ما يملك في سبيلِ مطلوبِه فهو عال الهمة في طلبِه، فإذا أيقن طالبُ العلم أنه إنما يطلبُ وراثة سيدنا رسول الله - صَلّى اللهُ عَليْهِ وَعلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّمَ – في تحقيق رسالته احتسابًا المتمثل في إخراجِ الناس من الظلماتِ إلى النور بالحكمة والموعظةِ الحسنةِ كان له من هذا اليقين ما يحقّقُ له شيئًا من علوّ الهمة، ، فكل ما يبذله في تحقيق هذا هو عنده من دونِ ما يطلبِ

روَى أبو داود في طتاب« العلم» منْ سُننه بسنده عم أبي الدرداء - رضِيَ الله عَنه – قال:«رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ :

« مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ

وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ

وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِى جَوْفِ الْمَاءِ

وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ

وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ

وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ ».

إذا ما أيقن طالبُ العلم ذلك، ومكَّنه في فؤاده كان له من هذا ما يجعلُه فتي العزمِ في طلبِه، لا يرضى بغير إتقانِه ، ولا يلتفتُ إلى غيره، ولا يَمدنّ بصرَه وبصيرتَه إلى ما متع به غيرُه من زهرةِ الحياة الدّنيا فتنة ، وابتِلاءً .

ما رأيت طالبَ علم قد سَئمَ أو تقاعس عن طلبِه العلم إلّا علمتُ أنّه لم يمكن في فؤاده معنى «طلب العلم» و« مغزاه» حسب َضلالةً أنَّ طلبَ العلم النفيعِ بكتابِ الله تعالى وبسنة رسولِه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّمَ - ، وبالعلوم المؤدية إلى تحقيق ذلك من علوم اللسان ونَحو ذلك إنّما تطلبُ ؛ ليطلب بها رزق الأبدان، ورأى أنَّها لم تعد قادرة على أن تحقّق لأهلها ذلك، فأعرضَ عن ذلك أوتقاعسَ .

ولو كان على يقين مكَين أنّ هذه العلوم لا يُطلبُ بها ذلك ، لعلمَ أنَّه إنّما طلب ما يريدُ مِن زرقِ جسده بغير أداته .

رزقُ الأجساد له طرائق كثيرةٌ ميسورةٌ، ولكنَّ رزقَ فؤادك وعقلِك ، ولسانه ثمّ روحك لا سبيل إلى تحصيله إلا العلمُ النّفيعُ بكتابِ الله تعالى وبسنة رسوله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّمَ – المخرج من الظلمات إلى النّور نوهو علم ثقيلٌ تحصِيل لا يصبرُ علَيْهِ صبرًا جميلًا إلا من فقهَ قيمة ما يُطلبُ بنه.

أخطأ الطريق إلى مطلوبِه ، وركبَ متن ما لا يوصّل إلَيْه. ولو تبصَّر لعلم أنّ العلم النّفيع بكتابِ الله - سبْحانَه تَعَالَى - وبسنة رسُوله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّمَ - له استحقاقاتٌ كثيرةٌ حسيّةٌ ومعنويةٌ .ولا يليقُ أن يكونَ طلبُ رزق الأجسادِ هو الغايةُ منها ؛ لأنّ كلّ ذِي بصيرةٍ بلْ كُلّ ذي بصرٍ يعلم علم يقين أنَّ ما يبذلُ في تحصيلِ ذلك العلمِ أجلّ من أن يكونَ هذا عديلَ طلب رزق الأجساد.

على طالب العلم النفيع المخرج من الظلماتإلى النور أن يكون عالّ الهمةِ لا يرَضى بغير الفردوس مسكنا . وبغير جوار سيدنا رسول الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّمَ – فيها جارا .

روى الشيخان " البخاري في«التّوحيد» ومسلم في كتاب «الذكر والدعاء والتوبة»؛ بسنديهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - قَالَ قَالَ النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم - :

« قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِى وَاللَّهِ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلاَةِ وَمَنْ تقَرَّبَ إِلَىَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَىَّ يَمْشِى أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ ».(النصّ لمسلم)

والحمدُ لله ربّ العالمين

وكتبه

محمود توفيق مُحمد سَعد